الفصل الثالث

كيف ندعو الناس

قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف] .

القسم الأول

تنوع الخطاب

تميز الخطاب الإسلامى المعاصر بميزات أخرت وصوله إلى الناس ، إذ إنه عبر تعبيرا دقيقا عن المبادئ والأهداف التى تبنتها الجماعات وكل جماعة أو فئة من الدعاة خاطبت الجماهير بلهجة خطابية واضحة سواء أكانت مكتوبة أم

مسموعة ، حتى أن لهجة الخطبة ظهرت بوضوح فى الأحاديث التى تمكن دعاة الإسلام من بثها فى الأجهزة المرئية كالتليفاز مثلا ، أو حتى الأفلام التى تتحدث عن فترة التاريخ الإسلامى أو بها لكنه دعوة أو عرض لأفكار ربما تظهر بين الحين والآخر .

وتجاهل الخطاب الإسلامى تماما نوع المخاطبين . فخطيب الجمعة مثلا لا يعرف من بالمسجد ولا يعرف أفكارهم أو اتجاهاتهم أو آراءهم ، وغالبا ما يندد ويتوعد بجهنم الذين جاؤوا ليحضروا صلاة الجمعة ، ولم يقم أى خطيب بمحاولة معرفة المستمعين ، خاصة أن الخطباء ينتقلون من مسجد إلى مسجد ، ولكن بعضهم يبقى ثابتا فى مسجد ولسنوات طويلة ، وحتى عندما يثبت هذا الخطيب ، فإنه يكرر نفسه مستغلا المناسبات الدينية ليتحدث عنها بعيدا عن كل ما يحيط به من أحداث .

ولعل الخطيب المرغوب فى أقاصى العالم الإسلامى وأدانيه هو الذى يتهجم على الحكومات والمسؤولين مهما كان هو أو كان الحكام والمسؤولون !؟؟ وإذا كان هناك من بيان أو خطاب موجه للناس للحديث عن أمر من أمور البلد الذى يعيش فيه الدعاة ، فإنهم لهجة الخطاب غالبا ما تكون موحدة للناس جميعا على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم وأفكارهم ، والسبب المباشر لهذا أن خطيب الجمعة الذى كان يخطب فى بداية القرن ـ على جهله وتخلفه ـ كان تحت الرعاية والحماية الحكومية المسلمة من جهة ، ويخاطب عوام الناس على أنهم على الأكثر أكثرية مسلمة .

التجزئة حولت المفاهيم هذه إلى تضاد ، فأولا ليس هناك حاكم مسلم يحمى الدين ويذود عنه ، إن لم يكن عدوا له ويتبنى عقائد غيره . ثم بروز الأقليات التى أخذت تتزاحم فى مواقع المسؤولية سواء أكانت طائفية ـ بعض الطوائف الإسلامية التى كانت تعتبر شاذة أو ضالة ـ أم بروز النصارى واليهود أم حتى

الوثنيين فى نسب تتزايد فى كل دولة ، والتجزئة أصلا وجدت لبروز هذه الأقليات وإيصالها إلى مواقع الحكم والسلطان ، وما زال الخطيب يحاول أن يتصور أن العالم الإسلامى وحدة متكاملة سياسيا واقتصاديا وثقافيا وسياديا وقوة ، ولم يع بعد الواقع الأليم الذى يعيشه المسلمون فى هذا الوقت .

ومن هذا المنطلق فإن تشويش المفاهيم أدى أيضا إلى تشويش الخطاب الإسلامى للناس . وما زال الدعاة يعتقدون بأن كل من حمل اسما إسلاميا فهو مسلم يغار على دينه كما يغار هو ، ويحمل همه كما يحمله هو دون الالتفات إلى الغزو الفكرى المنظم الذى محا من عقول الناس الكثير من المفاهيم الإسلامية والمقاصد الإسلامية . بل إنه هوى بهم إلى مدارك الشرك أحيانا وربما الكفر أحيانا أخرى ، وقتل الدعاة وتشريدهم فى أغلب الأحيان .

من هذا الواقع الذى تعيشه أمة الإسلام ، والتى أوضحنا الكثير من معالمها فى الوقت الحاضر ، لا بد من تنوع الخطاب الإسلامى ، وعدم العزف على وتيرة واحدة ، أو سلوك درب واحد . صحيح أن الإسلام هو الإسلام وأن الدعوة واجبة الأداء ، لقيت صدا أو قبولا ولاقى الدعاة معها القبول أو الرفض أو حتى القتل أحيانا ، وبأننا نملك الرصيد القوى والواسع من المسلمين وتعدادهم ١٦٠٠ مليون !؟؟ ولو التقوا لكانوا أعظم قوة فى العالم بلا منازع ، ولكن الواقع أن هؤلاء يشكلون ٦٤ دولة مستقلة لها أعلامها (راياتها) فى الأمم المتحدة فلنا ٦٤ / ١٨٢ ، أى : ثلث أعلام الأمم المتحدة . وهم يمثلون فقط ١١٠٠ مليون ، ويأتى بعد ذلك ٥٠٠ مليون مسلم تحت ظل الدول الأخرى وعددها ١١٨ دولة يتفاوت وجود المسلمين فيها ما بين فئات الملايين وعشرات الأفراد . فى الصين مثلا ١٢٥ مليون مسلما ، فى الهند ١١٥ مليون مسلما ، فى روسيا ٢٥ مليون مسلما ، وينتشر المسلمون فى قارات أوروبا وأمريكا وأفريقيا وغيرها من الدول ، هذا من حيث التوزع والولاء والمسميات

المختلفة ، ولكن الالتزام هو الأصل ، ومع كل ما نرى من مظاهر الكفر والشرك والبعد عن الإسلام ، فإننا ما زلنا نعد ١٦٠٠ مليون نسمة .

ولقد كان أيضا من مساوئ التجزئة الكثيرة والكثيرة جدا ، هو اختلاف القوانين والأهداف والولاءات والاتجاه والرأى والفقر والغنى وغير ذلك ، مما يجعل كل دولة تقوم نفسها بكل احتياجاتها ومطامعها وأهدافها ولغتها وسبيل طريقها ومصيرها . وكذلك فقدان التنسيق بينها إن لم تكن العداوة . وقبولها ورفضها للخطاب الإسلامى على المستوى الشعبى أو الحكومى . ومن هنا فإننا ما زلنا نحن المسلمين والدعاة منا نخاطب الناس على مستوى واحد وبشكل واحد وببيان واحد .

إن تنوع الخطاب الإسلامى ضرورى لاختلاف الألسنة والأفكار والعقول والاتجاهات ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [هود : ١١٨] ، ولكنَّ الله تعالى جعل الناس مختلفين فى الخلق والتكوين والأعمار والعلم والإيمان والجهل والفضل ، ولذلك فإن تنويع الخطاب الإسلامى يجب أن يصل إلى كل واحد على قدر مداركه ومعرفته وعلمه . وليس معنى هذا أن نجعل داعية لكل واحد أو عدة دعاة ، فإن هذا ليس هو المطلوب ، بل المطلوب هو أن الناس ـ مع اختلاف تكوينهم ـ منفردون ، فإن أمورا كثيرة تجمعهم ، وهذه الأمور هى التى تطرح عادة ، فيتفق عليها مجموعة من الناس ويختلف عليها آخرون ؛ ولذلك فإن الله تعالى أرسل أنبياءه تترى على فترات طويلة لأقوام مختلفين حتى يبين لهم الحق من الباطل ، ويجتمع عادة رجال على الباطل وإناث ، وتجتمع على الخير نساء ورجال أيضا.

ولذلك فإن فى طبائع الناس أمورا موحدة وصفات متوافقة ، ومجالات يعرفها أناس ويكفر بها آخرون . تحت عنوانين رئيسيين تحيا البشرية تحت راية الخير ، وتحت راية الشر . وجعل الله تعالى فى الطبائع أمورا متوافقة ـ يتفق عليها أناس ـ

وأمورا متنافرة ـ يتفق عليها أناس آخرون ـ وتحت هذه المظلة أو هاتين المظلتين أمورا محددة جدا تنطبق صفات إنسانية معروفة ومحببة للناس منها : الصدق ، والأمانة ، والوفاء ، والسلام ، والمحبة ، والنجدة ، والكرم والفضيلة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكل فضيلة حسنة يقبلها الناس بفطرتهم ، وهى كل ما جاء به الإسلام .

وأرسل الله تعالى رسله على فترات ، وأمرهم أن يتعاملوا مع أقوامهم بما يعرفون عنهم ، ولذلك فإن الله قد أرسل لكل أمة رسولا وعدة رسل يخاطبونهم بمفهوم الخير ، ليبتعدوا عن الشر ، وينقسم الناس بين مؤيد ومعارض ، وكانت مهمة الرسل عليهم السلام الصبر والعمل الدؤوب لينقلوا الناس إلى مصاف الخير ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة] .

أولاً : أسلوب القرآن الكريم فى تنوع الخطاب :

تنوعت أساليب الخطاب فى القرآن تنوعا واضحا وتجلى ذلك بالنداء الذى نادى به الأفراد أو الفئات كل حسب ما يكلف به ، وكان الخطاب عاما فى بعض جوانبه ، وخاصا فى جوانب أخرى . والعمومية أيضا تنوعت ، فهناك عمومية الناس جميعا ، وهناك عمومية خاصة بفئة أو جماعة أو طائفة ، والخطاب الخاص أيضا عن مجموعة من الناس ذات صفات وحدود معينة ، وأفراد وأسماء بمسمياتها . ونسوق بعض الأمثلة على ذلك ، وارتباط النداء بالتكليف

الذى ورد بعده أو بالأمر الذى أمره الله تعالى للفئة أو الفرد المخاطب ، وتنوع النداء أو الخطاب بشكل ملحوظ واختلاف اللهجة والمقصود من الخطاب .

أ- الخطاب العام: إن الله - تعالى - قد وجه للناس كافة نداء فى القرآن الكريم كعموم الناس وخصوصهم ، وعلى اختلاف توجهاتهم وأفكارهم وأحوالهم : ويرتبط النداء بما فطر الله الناس عليه ، أو على جميع ما فى حياتهم من عموم التوافق بين الناس جميعا . ومنها: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة] .

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] .

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة] .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء] .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾ [النساء] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء] .

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس] .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج] .

وآيات أخرى كثيرة ، ويختص النداء العام بالعمومية التى توافق مختلف الاتجاهات ومختلف الأفكار وتؤكد على ما يشترك به الناس جميعا ، فدعوة

التقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ وجهت للناس عموما وللمؤمنين وحتى النبي ﷺ : فالمطلوب عندما يصدر الخطاب الإسلامى مراعاة هذه العمومية ، ولا يعرض خصوصياته على عموم الناس ، فإن كثيرا من الناس قد لا يهتمون تماما بما نريد نحن المسلمين ، ونرى أن كثيرا من الآلام التى يعيشها المسلمون لا تهم إلا طائفة معينة . لكن عندما نعمم على العالم ونؤكد على أن مشكلتنا هى نوع من الآلام التى يشترك فيها جميع الناس على اختلاف ثقافتهم وحاجتهم ، وقد لا يكونون هم سبب هذه المشكلة وصانعوها .

ويلحق بالناس نداء آخر يعم النامس جميعا باعتبارهم أبناء آدم ، فكان النداء لهم أيضا فى بعض الآيات:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف] .

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ

بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأعراف] .

أما النداء العام الخاص فقد كان أكثره للذين آمنوا وقد أحصى خمسة وثمانين نداء للمؤمنين .. يأمرهم وينهاهم ، ويدعوهم ، ويهديهم ويحذرهم ، ويبشرهم ويضع لهم أسس دينهم ودنياهم وآخرتهم ، وعلاقتهم فيما بينهم وبين الآخرين ، إن نداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ، والذين حظى بهذا الكم الكبير من الآيات إنما هو دعوة الذين آمنوا إلى الطريق الذى يريده الله تعالى للمؤمنين .. ولم ترد يا أيها المسلمون ، لكنها كلها تقريبا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ . والملاحظة الثانية المهمة جدا فى هذا المقام ، هو أن هذه النداءات نزلت كلها فى المدينة أثناء بناء دولة الإسلام ، وتشكل جماعة المسلمين أو أمة الإسلام . ولم يرد أنه ورد فى مكة إلا خطابا واحدا هو: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. ويعتبر هذا النداء من الله تعالى إليهم مباشرة لبناء دولتهم وتشكيل مجتمعهم وتفهم دستور الإسلام الذى ارتضاه الله للناس ، وتفهم دين الإسلام الذى نسخ الديانات السابقة وأبطل العمل بها على الرغم من أنها عبارة عن موروثات محرفة مشوهة .

ولذلك كثر خطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ لجماعة المسلمين الذين أصبحوا أمة فى المدينة من دون الناس. ونرى بعض نماذج من هذا النداء فإنه مختلف ، ياعبادى: ولنحدد معنى نداء: يا عبادى ، فهم المؤمنون تماما ، مثل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ومن المعنى الذى سندرك بعضا منه يتبين أن نداء: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾

هو من الخصوص العموم وليس عاما كما يتبين من أن الناس جميعا عباد الله تعالى . قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة] وبعد الاستثناء لإجمال المؤمنين بالله تعالى من غير المسلمين أنهم يشاركون المسلمين فى صفاتهم وأحوالهم ومصيرهم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة] .

ـ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة] .

ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة] .

ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة] .

ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة] (١).

ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء] .

---

(١) البقرة: ٢٨٢ وهى أطول آية فى القرآن الكريم ، وتعرف بآية المداينة ، وهى تنظم العلاقة المادية بين المؤمنين وتدلهم على الطريق الأفضل للتعامل المادى بينهم .

ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء] .

ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾ [النساء] .

ـ وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران] .

ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة] .

ـ وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المائدة] .

ـ وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣ ﴾ [الصف] .

ـ وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ ﴾ [الممتحنة] .

وتتوالى هذه التوجيهات للمؤمنين ليؤدوا ما أمرهم الله تعالى به فى هذه المواقع الكثيرة التى لم تذكر . أما من مرادفات هذا النداء أيضا هو أن الله تعالى قد سمى العبيد المؤمنين باسمهم وناداهم يا عبادى.. ووردت معان أخرى بغير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢ ﴾ [الحجر] ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ۝٦٥ ﴾ [الإسراء] ، ويتجلى ذلك واضحا بقوله تعالى فى سورة الزمر: ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾ [الزمر] ، وقوله تعالى فى

نفس السورة: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر] .

ومن أشكال الخطاب العموم الخصوص خطاب الله تعالى لأهل الكتاب أيضا يبين لهم ضلالهم وخروجهم عن طريق أنبيائهم ، ودعوتهم إلى الهدى واتباع الرسول ﷺ ، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [آل عمران] وفى مجريات خطاب أهل الكتاب وأيضا وفى نفس السورة يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء] .

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا

مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة] . وفى نفس السورة آية ١٩ يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة] .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المائدة] .

وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المائدة] .

وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة] .

ومن العموم الخصوص ، خصوص بنى إسرائيل من أهل الكتاب ، فمع أن الآيات السابقة التى اخترتها بصيغة النداء فإن أهل الكتاب فى القرآن الكريم تتوارد أخبارهم باستمرار وفى أكثر من سورة ، ولقد خص الله تعالى بنى إسرائيل من أهل الكتاب بنداء خاص لأنهم هم أهل الدين الأول: اليهودية ، ويدعون

انتسابهم زورا وبهتانا إلى الحنفية دين إبراهيم ، فقد جاء نداء الله تعالى وتوجهه بالخطاب إليهم ليبين ضلالهم وغضب الله عليهم وقتلهم الأنبياء بغير حق ، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة] .

وجاءهم نداء من الله ـ خطاب ـ خاص بهم فى كثير من الآيات نذكر بعضا منها فى هذه العجالة ، فقد وردت ثلاث آيات مبتدءة بقوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة] .

فالأولى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة].

والثانية: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ

عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة] .

والثالثة: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [البقرة] ، ويلاحظ التقارب بين هاتين الآيتين الأولتين بعد التوافق بالآية الأولى.

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة] .

وقال تعالى على لسان عيسى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الصف].

وفى هذا السياق جاء نداء الأنبياء لأقوامهم الذين خالفوهم ووقفوا فى

وجه دعوتهم ، وكان الأنبياء ينادونهم ليبلغوهم رسالة الله- عز وجل- وكل نبى أرسل إلى قومه يبين لهم رسالته ويبين لهم الطريق الذى أراده الله تعالى لهم ، ونرى أن فحوى الخطاب هو الدعوة إلى ترك العادات التى كانوا عليها ـ عادات السوء والفحشاء ـ وتجنب هذه الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وكذلك تبيان الحق والهدى ، والنصح لهم وإرشادهم .

قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود] .

وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [هود] .

وقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ

إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود] .

وقال: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [هود] .

وعلى لسان لوط عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود] .

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ [هود] (١) .

---

(١) انظر أيضا: سورة المائدة ، الأعراف ، القصص ، العنكبوت ، الروم ، غافر .

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف] .

وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة] .

وقال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس] .

ويستمر تحاور الأنبياء مع أقوامهم على مدى طويل فى كتاب الله يقدم لهم الأنبياء ما ينفعهم ويبتعد بعضهم عن الاستجابة لنداء أنبيائهم فجعلهم الله تعالى عبرة لغيرهم لما أصابهم من عذاب الله .

وننتقل بعد ذلك إلى النداء الخاص الذى خص به الله تعالى أنبياءه أو سواهم مبينا لهم أمره وهدايته ، وإنذارهم وتبشيرهم وتبيان الحق لهم فى كثير من الآيات الكريمة التى خص بها هؤلاء فهم الأنبياء الهداة الدعاة إلى الله عزوجل .

وأول نداء وجه للرسول ﷺ . ذكره بحال هو فيها وبصفات وتلميح له ﷺ أو صفة له. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ [المدثر] .

وهى الآيات التالية مباشرة لأول آيات القرآن الكريم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق] وهى أيضا تعد حديثا للنبي ﷺ وأمرا وتنزيلا عليه.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [المزمل] .

والمزمل: حالة من الحالات التى كان النبي ﷺ عليها بعد نزول القرآن الكريم عليه ، المدثر ، والمزمل... ونزلت آيات أخرى بصفة محمد ﷺ كالنبوة والرسالة .

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾ [الطلاق] .

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [التحريم] .

ومن غير ذكر لصفة أو اسم وإنما ظهر المخاطب من المعانى التى جاءت بها الآيات.

قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة] .

وقال: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون] .

وقال: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح] .

وقال: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ

عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم] .

ونادى الله تعالى رسوله بالرسالة وأمره ونهاه وأعطاه من توجيهاته ما يشاء .

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة] .

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] .

وتوجه الله - تعالى- بالنداء إلى نساء النبي ﷺ نتيجة الخصوصية التى لهن كأمهات للمؤمنين ، وقدوة صالحة للمسلمين جميعا والمسلمات خاصة لمعرفة

نوع التعامل الذى يجب أن يكون محدودا بالشرع بين المسلمين. وسبق نداء النساء نداء للرسول ﷺ يوجهه ليعلم أزواجه بحدود أمر الله تعالى:

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب] .

والنداء إلى النبي ﷺ بعد الفتح عندما جاءته النساء مبايعات والمعروفة ببيعة النساء وهى غير بيعة النساء التى عرفت ببيعة البعثة الأولى بين الرسول ووفد يثرب من الأوس والخزرج ، وأطلقت التسمية على البيعتين لتشابه شروطهما لكن الأولى (بيعة العقبة) كانت قبل الهجرة ، ولم تكن الشروط المطلوبة تتجاوز كثيرا شروط (بيعة النساء) التى جرت بعد الفتح وتميزا لبيعة العقبة الأولى عن الثانية التى عرفت (ببيعة الحرب) عرفت الأولى (ببيعة النساء).

قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الممتحنة] .

وجاء الخطاب لنساء النبي ﷺ مباشرا بعد ذلك:

قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا

ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب] .

ويتحول الخطاب للنبى ليس فقط لتوجيه زوجاته ودعوتهن ، بل يتعدى ذلك إلى بناته ونساء المسلمين جميعا:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وفى خصوصيات النبي ﷺ أيضا خطاب الله تعالى لرسوله فى أمور حياته الخاصة:

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا

لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] .

- ونادى الله تعالى أنبياءه فى مواقف كثيرة يبين لهم أوامره ونواهيه وما يريد منهم فى دعوتهم وعلاقتهم مع أقوامهم وهم أيضا يجأرون إليه بالشكوى والدعاء فى خطاب متبادل وهم يدعونه جل وعلا ليسر لهم ما انتدبوا إليه وما أرسلوا من أجله.

قال تعالى:﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه] .

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران] .

وقال: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ۘ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المائدة] .

وقال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم] .

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ

فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ [القصص] .

وهكذا نختم هذه الصفحات التى عدنا بها إلى رحاب القرآن الكريم نسأله طريقا حسنا نسلكه فى مخاطبة الناس على اختلاف تجمعاتهم أو انفرادهم أو تكاثرهم ، واكتفيت بذكر الآيات الكريمة دون أن أخوض فى تفصيلاتها وتفسيرها فهذه مهمة غير هذه ، وإنما نود أن نتعلم بأن يكون خطابنا متنوعا يختص كل فئة بما تعرف وبما تعلم.

صحيح أن بعض الحركات الإسلامية قد نوعت خطابها بأن وجهت كتبا ودعوات ونداءات إلى المسؤولين فى مختلف أنحاء العالم لكنها تبقى مجرد دعوات أو رد فعل على أمر حصل فأثار نفس الدعاة فتقدموا بكتابهم مادحين أو قادحين موافقين أو معارضين ، فإن من حق الخطاب أن يجلب بعده المنفعة العامة للدعوة الإسلامية ولأى فئة أو فرد كان ؛ لأن الغاية هى إقناع الموجه إليهم النداء بعدالة الإسلام ـ خاصة فى هذا العصر ـ ولنرسى بعد ذلك دعائم الدعوة على المنطق والحق والعدل ، وهو ما لا ترى بوادره بالقريب العاجل على الأقل .

ثانيا : أسلوب الحديث القدسى فى تنوع الخطاب :

وفى الأحاديث القدسية كثير من خطاب الله تعالى لعباده يدعوهم إلى المغفرة ويبين لهم حسن الثواب فى الآخرة للمؤمنين ، ويرغّبهم فى تفصيل أوسع من الآيات فى نعيم الله المقيم الذى لا حدود له ، ويجعل قلوبهم ترق إلى سماع فضله جل وعلا ، وما عنده من النعيم المقيم . وفى هذه العجالة نورد بعض هذه الأحاديث التى ترقق القلوب وتدمع العيون ، وتلين الأنفس ، وتريح الصدور ، وتقشعر لها الأبدان فى ذكر فضائل الله تعالى على عباده :

١ - حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ،

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم ـ عز وجل- وهو أعلم منهم ـ ما يقول عبادى؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال: فيقول: هل رأونى ؟ قال : فيقولون : لا ، والله ما رأوك قال: فيقول: كيف لو رأونى .. ؟ يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا ، وأكثر تسبيحا ، قال: يقول: فما يسألونى ؟ قال: يسألونك الجنة ، قال: يقول: وهل رأوها ؟ قال: يقولون : لا ، والله يا رب ما رأوها ، قال : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال: يقولون : لو رأوها كانوا أشد عليها حرصا ، وأشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة ، قال : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار . قال: يقول : هل رأوها ؟ قال: فيقولون : لا ، والله يا رب ما رأوها . قال: يقول: فكيف لو رأوها ؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة . قال: فيقول: أشهدكم أنى غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ، ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم »[1] .

٢- وروى ابن ماجه فى سننه فى باب فضل الحامدين ، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ حدثهم : « أن عبدا من عباد الله قال : يارب ، لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء ، وقالا: يا ربنا إن عبدك قال مقالة ، لا ندرى كيف نكتبها ؟ قال الله ـ عزوجل ـ وهو أعلم بما قاله عبده ـ ماذا قال عبدى؟ قالا : يارب إنه قال: يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال

---

(١) البخارى فى فضل ، الذكر ، واللفظ له ، ورواه مسلم (٢٦٨٩/ ٢٥) فى باب فضل مجالس الذكر .

وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله عزوجل لهما : اكتباها كما قال عبدى ، حتى يلقانى فأجزيه بها »[١] .

٣- وعن أبى هريرة ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: « إن الله تعالى يقول : يا بن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا ولم أسد فقرك »[٢] .

٤- وعن أبى هريرة ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى أن يقول: إنى لن أعيده كما بدأته ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى ، أن يقول: اتخذ الله ولدا وأنا الصمد ، الذى لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لى كفوا أحد »[٣] .

٥- وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ ـ فيما يروى عن ربه ـ عزوجل ـ قال: « إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها ، كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها ، كتبها الله له سيئة واحدة »[٤] .

٦- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبي ﷺ: « يقول الله تعالى : أنا

---

(١) ابن ماجه (٣٨٠١) ، وفى الزوائد: « فى إسناده قدامة بن إبراهيم ، ذكره ابن حبان فى الثقات . وصدقة بن بشير ، لم أر من جرحه ولا من وثقه ، وباقى رجال الإسناد ثقات » .

(٢) الترمذى (٢٤٦٦) وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه (٤١٠٧) ، وصححه الألبانى .

(٣) البخارى (٤٩٧٥) فى التفسير من سورة الإخلاص .

(٤) البخارى (٧٤٠٥) فى الرقاق .

عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبرا ، تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة »[١]

٧- وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧][٢] .

٨- عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله - عز وجل: أنفق أنفق الله عليك ، وقال: يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار. قال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض ، فإنه لم يغض ما فى يده ، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان »[٣] .

٩- وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى »[٤] .

- وفى الحديث الذى يلى بين الله تعالى لعباده أمورا تتعلق بحياتهم ومعاشهم ومآلهم فى خطاب متناسق متواز بين فيه خيرهم وفيه سعادتهم والعلاقة التى أعدها الله تعالى لعباده المصطفين الأخيار ، وبين كرمه ، وبين فضله على الناس وقدرته ورحمته وعفوه وغفرانه.

١٠- عن أبى ذر الغفارى ﷺ ، عن النبي ﷺ ـ فيما روى عن الله تبارك وتعالى ـ أنه قال :

---

(١) البخارى (٧٤٠٥) ، ومسلم (١٦٧٥/ ١).
(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٨٠) ، ورواه مسلم (٢٨٢٤/ ٢).
(٣) البخارى فى التفسير (٤٦٨٤) ، مسلم (٩٩٣/ ٣٧).
(٤) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٦٦/ ٣٧).

« يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا . . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه »[1] .

ثالثا : أسلوب الحديث النبوى فى تنوع الخطاب :

وفى باب الحديث تأكيد لما سبق ذكره من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ فى وجوب تنوع الخطاب الإسلامى ، وهذا الوجوب اقتداء بما ذكره من آيات كريمة وأحاديث قدسية ، ونسوق هنا بعضا من أحاديث النبي ﷺ الذى كان يفرق بالخطاب بين أصحابه رضوان الله عليهم وغيرهم ممن تعامل معهم ﷺ فى مجال الدعوة إلى الله تعالى :

١- فمن أحاديث العموم :

- عن عمر بن الخطاب ﷺ ، عن النبى ﷺ قال: « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما

---

(١) مسلم فى باب (تحريم الظلم) (٢٥٧٧/ ٥٥).

هاجر إليه)) [١] .

- وعن على بن أبى طالب ﷺ قال : قال ﷺ : ((لا تكذبوا على ، فإنه من كذب علىَّ فليلج النار)) [٢].

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: ((من القوم أو من الوفد ؟)) قالوا : ربيعة قال : ((مرحبا بالقوم أو الوفد غير خزايا ولا ندامى)) فقالوا : يا رسول الله : إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا فى الشهر الحرام ، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة وسألوه عن الأشربة ، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع . أمرهم بالإيمان بالله وحده . قال : ((أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟)) قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ((شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس)) .

ونهاهم عن أربع : عن الحنتم ، والدباء ، والنقير ، والمزفت وربما قال : المقير وقال : ((احفظوهن ، واخبروا بهن من وراءكم)) [٣] .

---

(١) البخارى (١) ، ومسلم (١٩٠٧/ ١٥٥) ، وانظر كتاب: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : وضعه محمد فؤاد عبد الباقى دار الفيحاء دمشق ودار السلام الرياض الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ج١ / ص١٤ .

(٢) البخارى (١٠٦) ، ومسلم (١ / ١) المصدر السابق ١ / ١٨ .

(٣) الحنتم : أى الانتباذ فيه ، وهى الجرة أو الجرار الخضر أو الحمر .

الدباء : اليقطين .

المقير : ما طلى بالقار ، وهو نبت يحرق إذا يبس تطلى به السفن وغيرها كما يطلى بالزفت.

المزفت : زفت الشيء ـ طلاه بالزفت.

المقبر : قبر فلان ـ جعل له قبر ، والقبار : سراج الصياد فى الليل ، المقبر الذى يقوم بالتقبير متفق عليه : البخارى فى كتاب الإيمان وباب أداء الخمس من الإيمان .

٢- ومن الخصوص إلى العموم :

- عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمين قال: « إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم »[(١)] .

- حديث أبى بكر وعمر رضى الله عنهما قال أبو هريرة : لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضى الله عنه ـ وكفر من كفر من العرب ـ فقال عمر ابن الخطاب- رضى الله عنهما-: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال: لا إله إلا الله ، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله » . فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة حق المال والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه.

قال عمر ﷺ : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله- عز وجل- قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه فعرفت أنه الحق[(٢)].

٣- نداء الخصوص أو خطاب الخصوص :

حديث معاذ بن جبل ﷺ قال : بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بينى وبينه إلا أخرة الرحل فقال: « يا معاذ » قلت : لبيك رسول الله وسعديك ! ثم سار ساعة ثم قال: « يا معاذ » ، قلت : لبيك رسول الله وسعديك . ثم سار ساعة ثم قال: « يا معاذ » قلت : لبيك رسول الله وسعديك قال: « هل تدرى ما حق الله على عباده ..؟ » قلت: الله ورسوله أعلم . قال: « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » . ثم سار ساعة ، ثم قال: « يا معاذ بن جبل » قلت:

---

(١) متفق عليه: البخارى (١٤٩٦) فى كتاب الزكاة ومسلم (١٩ / ٣١) .
(٢) متفق عليه: البخارى (٧٢٨٤، ٧٢٨٥) ، ومسلم (٢٠/ ٣٢).

لبيك رسول الله وسعديك ، فقال: « هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوه » قلت: الله ورسوله أعلم ، قال: « حق العباد على الله أن لا يعذبهم » [١] .

٤- وفى الخصوص العموم :

عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى ، فمر على النساء فقال: « يا معشر النساء تصدقن فإنى أريتكن[٢] أكثر أهل النار » . فقلن وبم يا رسول الله ؟ قال: « تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال: « أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل » قلن : بلى قال: « فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ » قلن: بلى ، قال: « فذلك من نقصان دينها »[٣] .

- حديث زينب امرأة عبد الله رضى الله عنهما : قالت : كنت فى المسجد فرأيت النبي ﷺ فقال: « تصدقن ولو من حليكن » وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام فى حجرها فقالت لعبد الله: سل رسول الله ﷺ ، أيجزى عنى أن أنفق عليك وعلى أيتامى فى حجرى من الصدقة؟ فقال: سلى أنت رسول الله ﷺ ، فانطلقت إلى النبي ﷺ فوجدت امرأة من الأنصار على الباب ، حاجتها مثل حاجتى فمر علينا بلال ، فقلنا : سل النبي ﷺ ، أيجزى عنى أن أنفق على زوجى وأيتام لى فى حجرى؟ وقلنا: لا تخبر بنا . فدخل فسأله ، فقال: « من هما ؟ » قال :زينب . قال: « أى الزيانب ؟ » قال : امرأة عبد الله قال: « نعم لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة » [٤] .

---

(١) متفق عليه: البخارى (٥٩٦٧) فى كتاب اللباس وباب ارداف الرجل خلف الرجل ، وزاد فى مكان آخر . قال ماذا يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا !؟ قال : إذا يتكلوا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما ، ومسلم (٣٠ / ٤٨) .

(٢) أريتكن : أى فى ليلة الإسراء والمعراج .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الحيض ، وباب ترك الحائض الصوم .

(٤) رواه البخارى (٣٠٤) فى كتاب الزكاة ـ باب الزكاة على الزوج والأيتام فى الحجر .

عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض » قيل : وما بركات الأرض ؟ قال: « زهرة الدنيا » فقال له رجل : هل يأتى الخير بالشر ؟ فصمت النبي ﷺ ، حتى ظننت أنه ينزل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه ، فقال : « أين السائل؟ » قال: أنا ! قال أبو سعيد لقد حمدناه حين طلع لذلك قال: أى رسول الله ﷺ : « لا يأتى الخير إلا بالخير ، إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم [١] إلا آكلة الخضرة ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت [٢] ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حلوه من أخذه بحقه ، ووضعه فى حقه ، فنعم المعونة هو ، وإن أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع » [٣] .

٥- تخصيص الخطاب بقوم :

عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا ، فكانوا وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم رسول الله ﷺ فقال: « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى؟» كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن قال: « ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ قال : كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمنٌ قال : « لو شئتم قلتم

---

(١) حبطا : يقال : حبط الدابة تحبط حبطا : إذا أصابت مرعى طيبا فأمضت فى الأكل حتى تنتفخ فتموت .
أويلم : أى : يقرب من الهلاك والمعنى : يقتل أو يقارب القتل .
الخضرة : ضرب من الكلأ تحبه الماشية وتستلذ منه فتستكثر منه .
(٢) اجترت: استرجعت ما أدخلته فى كرشها من العلف فمضغته ثانيا ليزداد نعومة وسهولة لإخراجه .
ثلطت : ألقت ما فى بطنها من السرجين رقيقا ، والسرجين هو الزبل .
بالت : ارتاحت بما ألقته من السرجين والبول وسلمت من الهلاك .
(٣) البخارى (٦٤٢٧) فى كتاب الرقاق .

جئتنا كذا وكذا ...ألا أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الأنصار واديا وشعبا لسلكت وادى الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار والناس دثار . إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » (١) .

- حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: بعث على ﷺ إلى النبي ﷺ وسلم بذهيبة . فقسمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس الحنظلى ثم المجاشعى ، وعيينة بن بدر الفزارى ، وزيد الطائى ثم أحد بنى نبهان وعلقمة بن علاثة العامرى ، ثم أحد بنى كلاب ، فغضبت قريش والأنصار قالوا : يعطى صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ قال: « إنما أتألفهم » ، فأقبل رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ، ناتئ الجبين ، كث اللحية ، محلوق فقال : اتق الله يا محمد ..! فقال الرسول ﷺ : « من يطع الله إذا عصيت ؟ أيأمننى الله على أهل الأرض ولا تأمنونى » فسأله رجل قتله ، أحسبه خالد بن الوليد ، فمنعه فلما ولى ، قال رسول الله ﷺ : « إن من ضئضئى هذا أو فى عقب هذا قوم يقرؤون القرآن ولا يتجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان . لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » (٢) .

٦- ومن توجيهات النبي ﷺ العامة :

عن أبى هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » (٣) .

- وفى حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : لم أزل حريصا على أن

---

(١) البخارى (٤٣٣٠) فى كتاب المغازى ، باب غزوة الطائف المصدر السابق ١ / ٢٧٠ .
(٢) البخارى (٣٣٤٤) كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ .
(٣) البخارى (٥١٨٥ ، ٥١٨٦) كتاب النكاح ، باب الوصاة بالنساء .

أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتى حج وحججت معه ، وعدل وعدلت معه بإداوة فتبرز ، ثم جاء فسكبت منها فتوضأ فقلت له: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم] قال: وا عجبا لك يا بن عباس هما عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر .

ثم استقبل عمر الحديث يسوقه . قال : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد وهم من عوالى المدينة . وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ فينزل يوما وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحى أو غيره . وإذا نزل فعل مثل ذلك ، وكنا معشر قريش نغلب النساء . فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم . فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، فصخبت على امرأتى فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى قالت: ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ، فأفزعنى ذلك ، فقلت لها : قد خاب من فعل ذلك منهن .

ثم جمعت على ثيابى ، فنزلت فدخلت على حفصة ، قلت لها : أى حفصة أتغاضب إحداكن النبي ﷺ اليوم حتى الليل .؟ قالت: نعم . فقلت: قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسول الله ﷺ فتهلكي . لا تستكثرى النبي ﷺ ولا تراجعيه فى شىء ، ولا تهجريه ، وسلينى ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ (يريد عائشة)...إلخ الحديث [١].

---

(١) البخارى (٥١٩١) فى كتاب النكاح ، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها .

وفى مجال التحريم العام :

- عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو بمكة عام الفتح: « إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » ، فقيل: يا رسول الله ، أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن ، يدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس فقال: « لا .. هو حرام » . ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: « قاتل الله اليهود إن الله لما حرم شحومها جملوه . ثم باعوه ، فأكلوا ثمنه » [١] .

- وعن النعمان بن بشير ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ـ ألا وهى القلب » [٢] .

القسم الثانى
بلاغة الخطاب الإسلامى

١- اللغة العربية والتنزيل :

أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلغة العرب على رسول عربى بلسان عربى مبين ، قال تعالى :

- ﴿ الٓرٰ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسف] .

---

(١) البخارى (٢٢٣٦) فى البيوع .
(٢) البخارى (٥٢) فى كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه .

- ﴿ الٓمٓرٰ ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ﴾ [الرعد] .

- ﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾ [البقرة] .

- ﴿ الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ ﴾ [آل عمران] .

- ﴿ يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦ ﴾ [يس] .

- ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ ﴾ [ص]

- ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ ﴾ [الزمر] .

- ﴿ حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ ﴾ [غافر] .

- ﴿ حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ ﴾ [فصلت] .

obeikandl.com

- ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾ [الزخرف] .

- ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ ﴾ [الدخان] .

- ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾ [الجاثية] .

- ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾ [الأحقاف] .

- ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾ [محمد] .

- ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾ [ق] .

هذه فى فواتح السور وأكثر ورودها بعد الأحرف النورانية التى ما زالت معجزة القرآن الكريم حتى الآن رغم العديد من التفسيرات التى تفضل بها المفسرون ، فإنها كلها جاءت تثبت الكتاب من الله العزيز الحكيم بلسان عربى مبين ، وفى آيات أخرى فى قلوب السور وردت أيضا قضية اختيار الله تعالى

للغة العرب ليكون فيها التنزيل ، وكان .

- ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل] .

- ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء] .

- ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت] .

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه] .

- ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر] .

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى] .

ونزل القرآن الكريم بلغة العرب فى فترة ازدهار هذه اللغة ووصول المتعاملين معها من أدباء وشعراء وخطباء إلى ذروة الأداء البلاغى ، وتكلم بها العظماء وأصحاب الأدب السامى بتعابير تأخذ بالألباب . وفى هذا الزمن

نزلت آيات القرآن الكريم لتكون تحديا لهؤلاء أن يأتوا بسورة أو آية من سور وآيات القرآن الكريم وعجزوا واعترفوا بعجزهم ، وما زالت المعجزة قائمة ببلاغة القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكان لبلاغة القرآن الكريم الآثر فى نفوس السامعين كخطاب غيرعادى ، وغير ذى عوج ، وغير مسبوق أو ملحوق ببلاغته . فكان التأثير قويا فى نفوسهم ، وعلموا أنه ليس من صنع البشر ، بل هو تنزيل من عزيز حكيم . والخطاب الإسلامى يحتاج إلى بلاغة غير عادية لمخاطبة الناس ، بلاغة مفهومة وليست بالقدر الذى لا يفهمه من يسمعه ، أو يسعى لأن يبحث فى القواميس والألسنة عن معانى كلماته ، وإنما بالأسلوب البديع المحكم الذى ينساب بسلاسة وعفوية وحيوية حتى يجد له فى نفس المخاطبين ذلك الأثر البلاغى الإبداعى المطلوب .

وتمتاز اللغة العربية بخاصيات بلاغية لا توجد فى لغات العالم الأخرى ، كما أن مخارج الحروف وتهجيتها تمتاز بصياغة كلمات هادئة قوية ، ذات لحن وجرس موسيقى خاص ، كما أن الشعر العربى وبحوره تختص بموسيقا خاصة أيضا .

إن مجمل ميزات اللغة العربية يجب أن يتقنها منشؤوا وكتاب الخطاب الإسلامى ، واختيار الأسلوب المناسب للأنواع المطلوب خطابها ، وللجماعات التى نريد الحوار معها أو التواصل والتآلف والتحابب ، كما إن تعبيرات فى اللغة العربية حاسمة قوية جبارة ، ذات وقع مخيف ومؤثر كما ورد فى ذكر جهنم فى كتاب الله تعالى أو خطاب الإنذار للناس ، وفى نفس الوقت تمتاز الآيات المبشرة للمؤمنين بعز الدنيا والآخرة ، وبالرصانة والبلاغة والحنو والحب والمودة .

فإتقان بيان اللغة العربية ضرورى لصائغى الخطاب الإسلامى ليكون لخطابهم وقع وتأثير فيمن يوجه إليهم ، وبأى الصيغ كان . وإلى المسلمين جميعا

وخاصة الذين يصوغون الخطاب الإسلامى باختلاف أشكاله ووسائله وحدوده أن يعوا تماما ما ورد فى القرآن الكريم من اختيار الألفاظ والكلمات المناسبة لكل وقت وجماعة وأمم وزمان ومكان ، ولا تكون اللهجة جامدة على مدار الأيام والسنين ، فبعض الذين يصوغون الخطاب الإسلامى يضربون على وتيرة واحدة بالتوجه وباللغة وبالأسلوب ، مما يفقد الخطاب الإسلامى الكثير من التأثيرات المطلوب الحصول عليها من جراء هذا الخطاب .

٢- البلاغة والفصاحة :

وهب الله - تعالى- خلقه على اختلافهم نوعا من التعبير وحسن الأداء ، تتفاوت القضية بين الناس ولكنها متوفرة فى أكثر الخلق ، واللغات أهم عامل مساعد فى توصيل المطلوب إلى الآخرين.

إعجاز القرآن البيانى لا يدانيه قول بشر مهما فعلوا أو حاولوا ؛ لأن التحدى قائم منذ أن نزل قبل نيف وأربعة عشر قرنا إلى جميع الخلق أن يأتوا بسورة أو بآية . فأصبح التعبير القرآنى شيئا من صنع الخالق ، والمخلوقات لها حدودها ومقامها .

وكانت بلاغة النبي ﷺ ضاربة فى الأفق ، يتحدى أيضا من كان فى عهد النبوة من البلغاء والشعراء والخطباء والأدباء ، وأسلوب النبي ﷺ أسلوب خاص مؤثر فيه السمو والعلو والترفع على بنى البشر ، ومع الطريقة التى نقلها علماء الحديث لنا حول هذا الموضوع ، إلا أن تميز لهجة النبي وتعبيره وخطابه فوق أقوال الناس وبلاغتهم . فكان ﷺ بليغا فى الرد والنصح والوعظ والتوجيه والأمر والنهى والتعليم ، مع اختلاف المخاطبين من صحابته - رضوان الله عليهم - من العبقرية الفذة إلى البساطة العادية التى تكون فى كل زمان ومكان.

وتأثر صحابته- رضوان الله عليهم - بأسلوب القرآن الكريم وأسلوب النبي

فرقت لهجتهم ولانت وحليت (حلوة) إلى درجة متطورة حتى شعراء النبي ﷺ أو من تعامل بالشعر معه ، فإن بلاغتهم شهد بها الكفار قبل المؤمنين ، أمثال حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهم ؛ ولذلك فإن اجتماع هذه المميزات من بلاغة القرآن الكريم ، وأقوال النبي ﷺ ، وبلاغة وفصاحة صحابته - رضوان الله عليهم - وبيان شعرائه مع ما قدم الإسلام للناس من خير وسعادة فى الدارين ، كان كل ذلك من أهم الأسباب التى أدخلت الناس فى دين الله أفواجا ، وأقبل الناس متأثرين بحسن البيان وروعة الخطاب للدخول فى هذا الدين ، والتحول من الجاهلية فى عبادتها وحياتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

ثم إن البلاغة والفصاحة التى تميز بها الخلفاء الراشدون ، وغيرهم من خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، والقادة العسكريون والفقهاء والفصحاء والأدباء ، ملأت قراطيس وكتبا وتراثا خالدا . كان له الأثر الكبير فى الحفاظ على روح التدين فى الناس ، ونشر الإسلام بغير سلاح من مساحات لا تحصى من أرض الإسلام فى أقوام ينطقون بغير العربية ، فتعلموها وفتنوا بها حتى أبدعوا فى التأليف فى أبواب النحو والمعاجم والبلاغة والصرف والبيان ، ونظرة بسيطة متفحصة لنرى الأعداد التى لا تحصى من الأعاجم الذين قدموا للغة العربية خدمات من تآليفهم مما يعجز الباحث عن جمعه وترتيبه .

فالمطلوب من دعاة الإسلام فى هذا الوقت أن يتحلوا بصفة حسن الصياغة ، وحسن الحديث ، وحسن تقديم خطابهم للناس ، ولا نكون غرباء من لغتنا ، وأول من يهدم كيانها وبنيانها ، وأول من يخرج إلى اللغات السائدة كثيرا فى وقت المحاورة والحديث معهم وإليهم ، ولكن بيننا نحن المسلمين من استهان بهذه اللغة ، وقل بين الأكاديميين أساتذتها ، وما فعل كثيرا علماء العربية فى الوقت الحاضر لتسهيل تعليمها ، وتسهيل إفهامها للناس ، بل إن الحاجز القاتل أمام دارسى العربية والتعمق بها فى بعض علوم النحو والبلاغة . على الرغم من أن تأصيل هذه العلوم كان على أيدى المسلمين الأعاجم ، الذين ألفوا

وكتبوا ودونوا ووضعوا تلك الأصول للدارسين ، وصاغوها شعرا ونثرا وقواعد محددة ، بكلام مختصر مفيد .

فالفصاحة والبلاغة فى الخطاب الإسلامى ضرورية لتعطى الأثر الذى نرجوه من جراء صياغة الخطاب المكتوب (كتابا ، أو نشرات ، أو صحفا ، أو بيانات أو غيرها) وكذلك فى الأحاديث والوسائل المسموعة كخطب الجمعة والوعظ والإرشاد والراديو والإذاعات ، وحتى فيما يمكن أن يكون مادة لأعمال أخرى .

ما من شك أن بلاغة الحوار والدعم بالحجج والدليل أمر مفروض علينا فى حياتنا العامة والخاصة ؛ ليؤدى الخطاب الإسلامى دوره المطلوب فى تبيان عظمة الإسلام وأحكامه وأهدافه وحلوله لمشكلات الدنيا ، ولا نقف عاجزين أمام تحديات المخترعات المؤثرة فى النفوس والشعوب ، والتى كان لها أكبر الأثر فى الانحراف عن جادة الصواب .

٣- التأثيرات النفسية والوجدانية :

تصدى لنقاش الرسول ﷺ العديد من قادة الحكم والفكر والدين من قريش ومن المشركين الآخرين ومن اليهود ، وكان النبي ﷺ يحسن اختيار الرد من القرآن الكريم أو من بلاغته ﷺ أو واقع الحياة . جاء عتبة بن ربيعة من حكماء قريش وقادتها وسياسييها إلى النبي ﷺ فى محاولة من المحاولات الكثيرة التى كانت قريش قد أعدت برامج لها من الترغيب والترهيب فى محاولات فاشلة ليثنوا النبي ﷺ عن دعوته ، فأخذ يبين عتبة بن ربيعة للنبى الحال الذى وصلت إليها قريش بإسلام العديد من أبنائها وخروجهم على العرف والعادة التى كانت عليها ، ودخولهم فى دين الله تعالى ، وتسفيه أحلام قريش وشتم آلهتها واحتقارها ، وما أدى الأمر إلى شق وشرخ كبيرين فى تعاون قريش وتلاحمها فأضعف هيبتها عند العرب ، وعرض على النبي ﷺ العروض السخية إن هو استجاب لنداء قريش . وتحدث

وطال الحديث والنبى ﷺ يسمع له ، فلما انتهى قال : يا عم لقد تكلمت فسمعت فاسمع ما أقول ، وتلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل] .

فاخترقت الآية أذنى عتبة بن ربيعة إلى دمه وعقله وقلبه ، فوضع أصابعه فى أذنيه وصاح : كفى يا محمد .. كفى يا محمد .. وخرج من عنده ، وذهب إلى بيته وانقطع عن الناس أياما حتى ظن القوم أنه صبأ (أسلم) ، فجاؤوه وسألوه الخبر فقال : والله ما صبأت ولكنى سمعت كلاما ما سمعت به من قبل ، فهو ليس بقول ساحر ولا بشر ولا كاهن . فالبلاغة والفصاحة تدخل القلوب من غير استئذان ، ولها التأثيرات الكبيرة جدا على نفوس الناس وعقولهم ، وكم من رجل أحاط الكفر والعصيان جوارحه كانت بكلمة من كتاب الله تعالى أو بقول من رسول الله ، أو من أحد صحابته تردهم إلى رشدهم ، وتحول مجرى حياتهم فيدخلون فى هذا الدين ، وقصة إسلام أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ سيد الأوس ، فى لحظات قصار بسماعهم حسن الأداء من مصعب بن عمير ﷺ حتى قال قومهم: والله لقد عاد إلينا أسيد (أولا) وسعد (ثانيا) بغير الوجه الذى ذهبا به . فتحول الوجوه من الكفر إلى الإيمان . وإنما هو برهان على أن هذا القرآن يغير المشاعر والأحاسيس الوجدانية ، ويبدل الحياة وليس عند البشر فقط الآدميين ، حتى عند الجن الذين سخروا لغواية المؤمن وإبعاده ما أمكن عن دينه فإنهم تأثروا وآمنوا .

قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن] .

وفى آيات أخرى يذكر الله – تعالى – حال أولئك الذين يستمعون إلى القرآن

فتفيض أعينهم من التأثر والخشوع .

قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة] .

إن الفصاحة والبلاغة ذات تأثير سحرى فى نفوس الناس ، فكم من ضال اهتدى بكلمة طيبة تتميز بالفصاحة ، وكم من جبار رق قلبه ولان لتأثير آية من آيات الله تعالى . بعد أن تتفاعل فى جنباته وتمس شغاف قلبه فيترك الهوى ويتبع الحق . وقصة إسلام عمر بن الخطاب ﷺ جاءت بعد أن قرأ بعض آيات القرآن الكريم من سورة طه فى بيت أخته فاطمة ، فانقلب من وحش كاسر إلى حمل وديع ، وكان منه ما كان فى إسلامه وفى خلافته .

إن الله تعالى قد أودع الخير فى قلوب الناس ، وأودع بها الليونة وأودع فيها الأمن والأمان ، فإذا طرقت هذه الودائع بأسلوب طيب مؤثر طردت الشر والحقد والتكبر لتكون فى مصاف المؤمنين ، وبالأسلوب الطيب والحوار الشرعى تكون الآثار الطيبة واضحة. ولذلك فإن الله تعالى قد أمرنا بأمر ما أعطيناه حقه من العناية والرعاية عندما أمرنا محددا لنا سبل الدعوة ذات التأثير النفسى البديع .

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] .

- ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج] .

- ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يوسف] .

- ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون] .

- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت] .

أى قول أبلغ من قول الله تعالى بأن يصبح العدو وليا حميما بحسن الدعوة ودفع السيئة ، وهذا الانقلاب النفسى لا يأتى إلا بحسن الخطاب ويدخل فى القلب بكلام يخرج من القلب ، أما ما يخرج من اللسان فلا يتجاوز الآذان .

٤- التأثيرات العلمية والعملية:

إن حسن الدعوة وبلاغة الخطاب لا تقتصران على التغييرات النفسية والوجدانية ، وهما من الأمور المهمة جدا ، ولكن يتعدى ذلك إلى الإسلام دين العلم ، الذى سبق كثيرا كل النظريات العلمية الحديثة وما جاءت جميع النظريات إلا تصديقا لما عند الله تعالى ، وتفسيرا لآياته التى ما عرفها الأولون ، والتى لا يعرفها أيضا المعاصرون وترك الله تعالى معرفتها لمن يأتى من بعد ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص] ولا ندخل فى شروح العلماء الذين نذورا أنفسهم للبحث فى الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة ، وهو علم ولج فيه الكثيرون الذين وجدوا فيه المتعة ، ووجدوا فيه من الإعجاز والعجب الشىء الكثير ، وملأت مقارناتهم واكتشافاتهم وبحوثهم الكثير من الكتب.

ولقد أدى التأثير فى البعض إلى دخول الإسلام إن كان غير مسلم قبلا ، والهداية للكثيرين الذين ضلوا فى هذه الحياة الدنيا وكانوا يظنون أنهم يحسنون صنعا . وبذلك فإن التأثيرات البلاغية والبيانية والعلمية والإعجاز كل الإعجاز الذى فى هذا الدين ، فإنه يقود لا محالة إلى الهداية وإلى معرفة الحق من الله تعالى ، بأن هذا الكتاب الخالد هو المعجزة الدائمة التى زود بها النبي ﷺ كخاتم للنبيين وإمام للمرسلين وناسخ ما سبقه من أديان إلا ما صلح منها ووافق شرعة الله تعالى . فإن من المنطق والمعقول أن يحسن المسلمون خطابهم ويخصون به أصحاب الخصوص إن كان ذلك ضروريا ، ويعممون إن كان التعميم أفيد وأفضل إلى درجة الاكتفاء لمن أراد أن يطلع عليها ، وعرفت أمة الإسلام بأمة « اقرأ » كأول كلمة نزلت من القرآن الكريم على قلب محمد الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

٥- النتائج والرصد الدعوى:

بعد هذا السرد الطويل لقضايا الخطاب الإسلامى لا بد من النهاية إلى أمر

مشفوع ومرتبط بمجريات هذا الخطاب . خاطب المسلمون الناس ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من كتاب الله وهدى النبي ﷺ ، والأخذ بالفضل والأصوب من أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم ، واستخدموا الوسائل المشروعة لإيصال خطابهم إلى الناس ، ولم يقصروا فى الدعوة إلى الله عزوجل . وتكاتفت قواهم وتناسبت وتناغمت دعواهم .

وفى هذا العصر بالذات الذى تميز بالسرعة وتميز بالاختراعات ، وتميز بثورة الاتصالات ، وانكمشت الأرض لتوضع فى كف الإنسان ، ومع عدم إمكانية الاستفادة من هذه الثورة فى الوقت الحاضر على الأقل ، فإن من المفروض عند تقديم كل هذه المعطيات أن نعلم إلى أى مدى تمكنا من إيصال خطابنا إلى الناس ، وإلى أى مدى سمع الناس خطابنا وإلى أى مدى تأثر الناس بخطابنا وإلى أى مدى استجاب الناس لما قدمنا ، وإلى أى مدى كسبنا مؤيدين ، وإلى أى مدى دخل الناس فى دين الله أفواجا لنفرح بنصر الله تعالى الذى جعله فرحتين بنصر وفتح : قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر] .

لقد قام الأنبياء عليهم السلام وقدم الصالحون من أتباعهم والصحابة والتابعون ومن أحسنوا الدعوة وتمكنوا أن يحصلوا على نتائج صافية مرضية ، لكن بعضا منهم حصلوا على ما حصل عليه غيرهم ، فكان ثوابهم عند ربهم جنات ؛ لأنهم جدوا واجتهدوا وعملوا واهتدوا وهدوا وحصلوا على بعض النتائج ، والله تعالى أيدهم بمعجزات وأيدهم بنصر ، ولكن بعض القوم ما استجابوا فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وجعلهم عبرة للناس على مر العصور ليعتبر أولو الألباب . وذكر الله تعالى لنا فى كثير من آيات كتابه العزيز النتائج التى تحصل عليها الأنبياء عليهم السلام ، وذلك لنتابع رصد النتائج من

خلال هذه الدعوة ، فقد يكون الدرب الذى سلكناه ليس قويما أو ليس مناسبا لزمان أو مكان أو بشر أو أقوام ، وقد لا يكون المقدم يتناسب مع المطلوب فيكون رد الفعل أقوى وأكثر ردة وكفرا .

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يونس] .

- وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس] .

- وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس] .

- وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ ﴾ [محمد] .

تلك سنة الله- تعالى- فى خلقه منذ أن أهبط آدم إلى الأرض وحمله أمانة الدعوة إلى الله تعالى ، فمن استجاب فقد فاز ومن عصى وضل ، فقد خسر خسرانا مبينا فى الدنيا والآخرة . ولذلك فإن من منطوق العمل أن لا يترك الأمر على علاته وإنما يوجب العمل الدعوى رصد النتائج التى تحصلت . الدعاة غير مسؤولين عن كمية المجيبين ، فإن هذا من أمر الله تعالى ، ولكن الدعاة مكلفون بدعوة الناس إلى هذا الدين الذى عليه المعول بإنقاذ الناس من هذا التردى الحضارى الذى وصلوا إليه فى متاهة الاختراع والتطور ، وفى الانصياع إلى قوة ما ملكها المسلمون ولكنها بيد الكافرين يستأثرون بها ويجعلونها فى خدمة مصالحهم وشياطينهم ، ويحاربون بها الله ورسوله والدعاة إلى الله ورسوله ، فمن الواجب التصدى بالقدر الممكن لهذا الزحف الجارف ، ومن ثم لا يمكن لأى إنسان أن يقف فى وجه التحديات وحيدا ، ولكن علينا الرصد وحساب النتائج حتى نقدر الحال الذى يمكن لنا أن نتصدى به .

لقد دأب بعض الدعاة على قول الكلمة والمضى بعدها لا يلتفتون إلى شىء فتراهم فى مد وجزر كبيرين ، غير عارفين عن حالهم أو حال الآخرين شيئا . ولا بد من تقدير ما يمكن حصره للعمل فى إطار المملوك من القوة والسلطان . وحتى عن أقرب الناس إليهم ، أهل بيتهم وزوجاتهم وبناتهم وأولادهم ، إذ اعتقد أولئك أن قول كلمة الحق والإسلام فى أى مكان أو محفل تكفى لأن

ترفع عنهم التكليف بالدعوة ، وتركوا القضايا الأخرى من أمور الناس ومعاشهم وسياستهم وحكوماتهم وكل ما يمكن أن يغير فى مجال الحياة تركوه ؟ تركوه لأنهم لم يهيئوا أنفسهم للاصطدام به ولمن تركوه؟ تركوه لعوامل الشر الأخرى تنهش فيه وتمزقه وتفسده ، وتحطمه ، وتقتل الخير فيه بأى مكان أو زمان ، ولا نلوم فى هذا أحدا ، لكن الذى نود قوله هو أن الرصد لا بد من معرفته ، ولا بد من معرفة اتجاهات الرأى العام فى أى بلد نخاطب أهله ، ونعرف مدى الاستجابة والتجاوب مع خطابنا إليه إن كان لنا قدر أن نخاطبه بعد أن صد الظالمون الطريق على دعاة الإسلام ، ودفعوهم دفعا إلى أن ينساحوا فى العالم يبحثون عن مكان يقفون عليه ، ليأخذوا نفسهم لحظة من المطاردات ومن الملاحقات .

لا بد من معرفة النتائج ، ولقد أفضنا الحديث عن تنوع الخطاب حسب السامعين ، لكن لا بد من معرفة ما آلت إليه أصوات الداعين إلى الله فى أى وسيلة من الوسائل كانت ، ولا يعنى الرصد الجامد ، لكن لا بد من اختيار الأنصار ، ولا بد من متابعة المسيرة معهم ، وتحويلهم إلى دعاة لهذا الدين بعد أن يعرفوا عنه ما يجب معرفته وحدوده ، وكذلك الأمر بالنسبة للصد إن وجد ، وكثيرا ما يوجد وذلك لتغيير لهجة الخطاب ، وأسلوب الخطاب ، ولغة الخطاب، وبلاغة الخطاب ، ولا بد من الرصد وتحمل مسؤولياته سلبا أو إيجابا حتى يكون العمل متقنا مبرمجا معروفا . صحيح أن الله يهدى من يشاء ، ولكن من الواجب معرفة هؤلاء الذين اهتدوا أو صدوا عن سبيل الله ، ويجب أن تسخر لذلك طاقات عالمة عارفة باتجاهات الناس وميولهم وغرائزهم وشهواتهم من خلال الاندماج الكامل أو شبه الكامل بالتجمعات التى توجه إليها الخطاب وحتى لا نخطئ الظن أو نحسنه بلا رصيد معروف فتكون الطامة وينقلب بذلك العمل إلى ما لا تحمد عقباه .

إن أحاديث سيدنا إبراهيم مع قومه ، غيرها من النمرود ، غيرها مع كل من صادف لقاءه معه عليه السلام. وكذلك خطاب النبي ﷺ الذى كان يعتمد كلية على معرفة من يسمع منه عليه السلام . وبذلك نضمن بعون الله تعالى حسن المسيرة ونضمن بذلك النتائج المرضية ، ولننتقل إلى الرقم التالى من هذا الحديث والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث
استدراك

قبل أن ننهى موضوعنا ونطوى صفحاته على المعلومات التى تعتبر غير كاملة تماما لعجز إدراك الإنسان وتأخره عن حصر كل ما يمكن أن يفكر به الآخرون ، أو حتى ما يطرحه الآخرون من أفكار وسياسات وآراء . فقد وقفت على كتاب « الشرعية السياسية فى الإسلام ومصادرها وضوابطها » ، إعداد وتقديم : عزام التميمى ، وهو مادة محررة من الأوراق والمداخلات التى قدمت لندوة نظمتها ليبرتى للدفاع عن الحريات فى العالم الإسلامى فى لندن تموز يوليو ١٩٩٦م تحت نفس العنوان . وصدر الكتاب فى مارس ١٩٩٧م . وتم الاطلاع على مقال الدكتور عبد الوهاب المسيرى تحت عنوان : معالم الخطاب الإسلامى الجديد . والمداخلات والتعليقات حول هذا الموضوع ، واقتضاب بعض الأفكار والآراء الطيبة ، والتعليقات المفيدة مما يدعم ما حوى هذا البحث لعلماء وسياسيين أجلاء ، وتصوراتهم حول الخطاب الإسلامى الجديد .

يقول المقال: يميل البعض إلى تصوير الخطاب الإسلامى باعتباره خطابا واحديا ، أى: ذا بعد واحد . لا شك أن الدين الإسلامى هو عقيدة التوحيد ، لكن التوحيد لا يعنى الواحدية ، بل يعنى: أن الله الواحد مفارق للإنسان والكون ، منزه عنهما ، وهو ما يعنى أن الواحد هو الله وحده وما عدا ذلك فكثير .

والخطاب الإسلامى ليس كلام الله[١] ، وإنما هو اجتهادات المسلمين داخل الزمان والمكان ومن ثم فهو أيضا متعدد وكثير . وتاريخ المسلمين هو تعبير عن هذه الكثرة والتعددية ، ونحن نميل إلى تصنيف مستويات الخطاب الإسلامى على النحو التالى :

١- خطاب إسلامى ظهر مع دخول الاستعمار إلى العالم الإسلامى ، وحاول أن يقدم استجابة إسلامية لظاهرتى التحديث والاستعمار ، وبقى حتى الستينيات من القرن العشرين ، ويشار إليه بالخطاب الإسلامى القديم .

٢- ظهر خطاب آخر كان هامشيا بدأ يظهر بمنتصف الستينيات ، وكان قبل هامشيا ويشار إليه بالخطاب الإسلامى الجديد ، والخلاف بين الخطابين هو الموقف من الحداثة الغربية .

وإلى جانب هذا التصنيف الثنائى على أساس المرحلة التاريخية قد يكون من المفيد أن نشير إلى تصنيف ثلاثى على أساس حملة الخطاب :

١- الخطاب الجماهيرى (الاستفتائى أو الشعبوى)[٢] . وهو خطاب القاعدة العريضة من الجماهير الإسلامية التى شعرت بفطرتها أن علميات التحديث والعلمنة والعولمة لم يكن فيها خير للأمة ولا صلاح لها . ولاحظت أن هذه العمليات هى فى جوهرها عمليات تغريب ، سلبتها موروثها الدينى والثقافى ولم تعطها شيئا بالمقابل ، بل أدت إلى مزيد من الهيمنة الاستعمارية والاستقطاب الطبقى فى الداخل ، وعبرّت عن نفسها من خلال هبات تلقائية

---

(١) الخطاب الإسلامى : يعنى كلام الله وما يرجع إلى كلام الله ، وبيان ذلك أن كلام الله تعالى وهو القرآن هو كلام الله لفظا ومعنى ، وكذلك حديث رسول الله ﷺ وهو وحى الله بالمعنى ، وأما اللفظ فلفظ رسول الله ﷺ ، وأما اجتهادات الفقهاء وما استفادوه من معانى القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ فهى لاحقة عليهما كما هو واضح . الدكتور عبدالكريم زيدان ـ تعليقا له أثناء مراجعة الكتاب .

(٢) المصطلحات من وضع الكاتب .

غاضبة ضد أشكال التعذيب المتطرف والغزو الاستعمارى أو من خلال « فعل الخير » . يتشكل هذا الخطاب من الفقراء فى الدرجة الأولى ، ولكنه يضم فى صفوفه أيضا الأثرياء ممن يشعرون بأهمية الموروث الدينى والحضارى ، وممن أدركوا أن فى ضياعه ضياعا لكل شىء .

٢- الخطاب السياسى ـ هو خطاب بعض أعضاء الطبقة المتوسطة من المهنيين والأكاديميين وطلبة الجامعات والتجار ، ممن شعروا أيضا بالحاجة إلى عمل إسلامى يحمى هذه الأمة . وإدراكا منهم بأن العمل السياسى هو السبيل إلى ذلك ، نظموا أنفسهم على شكل هيئات سياسية لا تلجأ إلى العنف ، تتبعها تنظيمات شبابية ومؤسسات تربوية . ربما مال البعض للاستيلاء على الحكم إلا أن الملاحظ بعد عام ١٩٦٥م أن ثمة اتجاها نحو العمل من خلال القنوات الشرعية القائمة ، ويكاد ينحصر اهتمام حملة هذا الخطاب فى المجالين السياسى والتربوى .

٣- الخطاب الفكرى: وهو الخطاب الذى يتعامل أساسا مع الجانب التنظيرى والفكرى داخل الحركة الإسلامية .

لا يعنى هذا التقسيم انفصال مستويات الخطاب الثلاثة ، فالخطابان الجماهيرى والسياسى متداخلان . وكذلك الأمر بالنسبة للخطابين السياسى والفكرى ورغم انفصال الخطاب الجماهيرى عن الخطاب الفكرى إلا أن تداخلا يحدث بينهما من خلال الخطاب السياسى . وهكذا ، ولكن رغم تأكيد هذه الوحدة الأساسية بين مستويات الخطاب الثلاثة ، فإن من المفيد من الناحية التحليلية افتراض استقلالها الواحد عن الآخر .

ويصف الكاتب حال الحضارة الغربية وما آلت إليه باعتبارها التحدى الحضارى الأهم إن لم يكن الأوحد للخطاب الإسلامى القديم أو الجديد . وقد ظهرت انتقادات جارحة لمجريات الحضارة الغربية من أبنائها أنفسهم ، ولم تعد تلك الحضارة التنويرية التى انبهر بها الأقدمون .

وكان ماركوز بحديثه عن تنميط الحضارة الغربية والإنسان ذى البعد الواحد، يبين أن ثمة خللا بنويا فى صميم الحضارة الغربية يتجاوز التقسيم التقليدى المتبع، الذى يقسمها إلى حضارتين واحدة اشتراكية وأخرى رأسمالية، وأعاد كثير من المؤرخين المراجعين كتابة تاريخ الحضارة الغربية، ليبينوا حجم جرائمها ضد شعوب آسيا وأفريقيا، وحجم النهب الاستعمارى، وظهرت كذلك كثير من الدراسات التى توجه سهام النقد الجذرى إلى نظريات التنمية، وكان لحركة اليسار الجديد إسهام مهم فى هذا المضمار، ولذا فسواء على مستوى الممارسة أو على مستوى الفكر، لم يكن من الصعب على حملة الخطاب الإسلامى الجديد من دراسة الحضارة الغربية فى منتصف القرن العشرين أن يعرفوا مثالبها كما لم يعد بوسعهم أن يمارسوا ذلك الإعجاب الساذج بها الذى مارسه كثير من إسلامى الجيل. فالحضارة التى عرفوها وخبروها مختلفة فى كثير من جوانبها عن تلك الحضارة الغربية التى عرفها ودرسها جيل الرواد وشتان ما بين الخبرتين.

لابد من التأكيد هنا على أن كلا الجيلين القديم والجديد لم يؤسس منظومته الفكرية انطلاقا من المنظومة الإسلامية وحسب، وإنما نتيجة تفاعله مع الحضارة الغربية فى الوقت ذاته، وهذا أمر طبيعى للغاية، فهى الحضارة التى فرضت سيطرتها على العالم، واكتسبت مركزية بحكم الانتصارات العسكرية التى حققتها، وهى الحضارة التى طرحت رؤيتها للكون باعتبارها رؤية كل البشر فى كل زمان ومكان، وطرحت معرفتها باعتبارها علوما دقيقة تصلح للتطبيق فى كل المجتمعات، وفرضت نفسها باعتبارها مستقبل البشرية جمعاء، وألقت بالتحدى الذى كان على الجميع الاستجابة له، شاؤوا أم أبوا ... !

وباختلاف نوع التحدى وحدته اختلفت الاستجابة، وقد وجد المصلحون الأوائل جوانب إيجابية كثيرة فى هذه الحضارة الغربية، بل أكاد أقول: إنهم

انبهروا بها ، وهذا ما عبر عنه الشيخ محمد عبده فى عبارته الشهيرة : لقد وجدت هناك مسلمين بلا إسلام ، ووجدت هنا إسلاما بلا مسلمين ،ولذا كانت استجابة الجيل الأول للتحدى الغربى هى: كيف يمكن أن نلحق بالغرب؟ وكيف يمكن أن ننقل تلك المنظومة الرائعة إلى حضارتنا مع الاحتفاظ بقيمنا وبشىء من هويتنا؟

ولكن لو كانت خبرة الشيخ محمد عبده مع الحضارة الغربية مثل خبرتنا ، لتردد كثيرا قبل أن يقول قولته هذه . وقبل أن يطرح معالم مشروعه ، وثمة واقعة تاريخية توضح النقطة التى أود الوصول إليها . لقد كان الشيخ رفاعة الطهطاوى يعيش فى باريس ١٨٣٠م وعرف عنه أثناء ذلك إعجابه بالحضارة الغربية . وكانت مدافع القوات الفرنسية حينها ـ وفى نفس ذلك العام ـ تدك القرى الجزائرية الآمنة دكا .

إلا أن الشيخ رفاعة الطهطاوى لم يكن يرى من حوله إلا النور الساطع ، الذى يغشى الأبصار ، ولم يكن يسمع سوى الإيقاع المتحضر المدوى الذى كان يغطى على الإيقاعات الأخرى ، أما الشيوخ الجزائريون ، فكانوا من مواقعهم فى قراهم البسيطة لا يرون إلا ألسنة النيران المندلعة ، ولا يسمعون سوى قعقعة القنابل . وتورد إحدى كتب التاريخ أنه قيل لأحد هؤلاء الشيوخ : إن القوات الفرنسية جاءت لنشر الحضارة الغربية فى ربوع الجزائر ، فجاء رده جافا ومقتضبا دالا ؛ إذ قال : ولما أحضروا كل هذا البارود إذن ...؟ (١).

نحن مثل هذا الشيخ الجزائرى ، شممنا رائحة البارود ، وشاهدنا ألسنة اللهب ، وسمعنا قعقعة المدافع ، ورأينا سنابك خيولهم وهى تدوس على كل شىء ، ثم رأينا البارود وهو يزداد انتشارا ، وشاهدنا مقدرته وهى تتحسن فى الأداء بشكل مذهل إلى أن أصبح قنابل وصواريخ وأسلحة جرثومية ونووية

---

(١) الشرعية السياسية فى الإسلام مصادرها وضوابطها : إعداد عزام التميمى ـ ليبرتى للدفاع عن الحريات فى العالم الإسلامى . ص١٦٥ ـ ١٧٣ بتصرف .

تخصص لإنتاجها نسب مئوية عالية فى ميزانيات الحكومات الغربية ، ثم الشرقية والجنوبية والشمالية ، حتى أصبحت صناعة أسلحة الفتك من أهم الصناعات فى عالمنا الحديث .

لو أن الشيخ رفاعة أو الشيخ محمد عبده شما رائحة البارود كما فعل الشيخ الجزائرى ، وكما نفعل نحن ، لما تحدث أى منهم عن مسلمين بلا إسلام ، ولكن لأن رائحة البارود كانت مختفية ، ولأن النور كان ساطعا يغشى الأبصار ، أصبحت القضية بالنسبة لكثير من حملة الخطاب القديم ـ كما أسلفنا ـ هى كيفية التصالح مع الحداثة. كان ذلك جوهر مشروع محمد عبده الذى ساد حتى منتصف الستينيات من هذا القرن ، وهو ما نشير إليه بالخطاب الإسلامى القديم

وهكذا أصبحت المنظومة الإسلامية جزءا من المنظومة العامة التى سادت العالم الثالث منذ بداية القرن الحالى ، حين كان الجميع يبذلون قصارى جهدهم فى اللحاق بالغرب والتنافس معه على أرضيته ، وقد نادى الليبراليون فى بلادنا بتبنى المنظومة الغربية الحديثة بحلوها ومرها ، وتمرد الماركسيون قليلا وطرحوا إمكانية أن ندخل الحداثة الغربية من خلال بوابات الماركسية والدفاع عن مثل العدالة الاجتماعية .

أما الإسلاميون فقد تصوروا إمكانية تبنى منظومة الحداثة الغربية ومزجها بالإسلام . ولكن الجميع رغم اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم ، فقد حول الغرب إلى المرجعية الشاملة الصامتة ، وهذه هى رؤية الكون الكامنة وراء معظم الأيديولوجيات العلمانية والدينية فى العالم العربى والإسلامى ، وبطبيعة الحال تراجعت المنظومة الإسلامية وتقلصت أبعادها وفقدت شمولها باعتبارها رؤية للكون ، وبدلا من طرح تصورات إسلامية لكل مجالات الحياة ، أصبحت القضية هى أسلمة بعض جوانب الحداثة . وكانت هذه الأسلمة تأخذ فى معظم الوقت شكل ((حذف)) المحرمات بلا إضافة ولا إبداع ، وتأكيد الجوانب ((الحلال)) فى الحضارة الغربية أو البحث عن تلك الجوانب فى المنظومة

الإسلامية التى لها ما يقابلها فى تلك الحضارة الغربية ، الأمر الذى يعنى ضمور الجوانب الأخرى التى تشكل صميم خصوصية المنظومة الإسلامية.

لا يشعر حملة الخطاب الإسلامى الجديد بالإعجاب نفسه تجاه الحداثة الغربية ، ولذا نجد أن خطابهم ينبع من نقد جذرى لها ، وهم فى هذا لا يختلفون عن كثير من المفكرين والحركات السياسية فى العالم الثالث والعالم العربى فى الوقت الحاضر ، فالماركسية هى شكل من أشكال نقد الحداثة ، ونبعت منه مدرسة فرانكفورت التى عمقت هذا النقد ، والأدب الرومانسى ـ كما أسلفنا ـ كان احتجاجا على الحداثة الغربية ، ولكن احتجاج الأدب الحداثى كان أكثر عمقا وجذرية فهو الذى يصور عالم الحداثة « المتشيئ » حيث يتحول الإنسان إلى شىء وتفقد الأشياء معناها ، وتنكسر حلقة السببية تماما . ومسرح العبث هو جزء من هذا الاحتجاج الغربى على الطريق المسدود الذى أوردتنا إياه الحضارة الغربية الحديثة .

وقد ظهرت أخيرا الأصولية الدينية فى الغرب كامتداد جماهيرى شعبوى لهذا الاتجاه الفكرى . وفى العالم الثالث نجد أن الفكر القومى هو فى جوهره محاولة لدخول عالم الحداثة من بوابات غير غربية ، ودون فقدان الخصوصية ، أى أنه ثمة إدراك ضمنى مفاده أن الحداثة الغربية تنزع الخصوصية عن الإنسان وتفرغه من مضمونه الإنسانى. والخطاب الإسلامى هو جزء من هذا التيار العالمى الأكبر ، وليس مقصورا علينا بأية حال ، فثمة إحساس بأزمة الحداثة الغربية أخذ أشكالا مختلفة فى أرجاء العالم ، وأخذ شكلا إسلاميا فى العالم الإسلامى .

ومع هذا يمكن القول بأن النقد الإسلامى للحداثة يختلف عن أشكال نقد الحداثة فى بقية العالم ؛ إذ إنه يدرك مدى ارتباط منظومة الحداثة الغربية بالإمبريالية الغربية ويدرك صعوبة فصل الواحد عن الآخر . فقد كانت الإمبريالية على أية حال هى أول تجربة لنا مع الحداثة وما الاستعمار الاستيطانى الصهيونى إلا واحدا من حلقاتها . كما يتسم النقد الإسلامى للحداثة بأنه متفائل ؛ لأنه يطرح حلولا ، على عكس النقد الغربى للحداثة فهو

متشائم عدمى .

هذه نقطة الانطلاق الأساسية التى تتفرع عنها كل السمات الأخرى .. والتى يمكن أن نوجزها فيما يلى[١] :

ويقع الإيجاز فى خمس وعشرين فكرة ، أوردها المؤلف ليحدد النظر للخطاب الإسلامى إلى الحداثة الغربية وموقفه منها ، وهى نقاط يمكن أن نضع عناوينها بما يلى :

١- الخطاب الإسلامى الجديد ليس اعتذاريا ، ولا يحاول أن يقول : نحن سبقنا الغرب بكذا وكذا ، ولا يتحدث عن الأمجاد الغابرة ، ومع هذا لا يرفض حملة هذا الخطاب الغرب بشكل قاطع .

٢- يرفض الخطاب الإسلامى المركزية والعالمية التى يقبضها الغرب على نفسه .

٣- ومع إدراك الخطاب الإسلامى الجديد أزمة الحداثة الغربية ، يدرك أيضا أنه لا يوجد أى مبرر لارتكاب أخطاء الآخرين ، وسلوك الطريق المسدود الذى أدى لأزمتهم .

٤- الخطاب الجديد فهو خطاب جذرى توليدى استكشافى .. لا يحاول التوفيق بين الحداثة الغربية والإسلام .

٥- لا يقنع باستيراد الإجابات الغربية الجاهزة على الأسئلة التى يطرحها الواقع ، ويتسم بأنه خطاب شامل ، فعلى المستوى الجماهيرى يطرح شعار: « الإسلام هو الحل » وغيره من الشعارات .

٦- الخطاب الإسلامى ـ نتيجة انفتاحه على الغرب ـ نجده قادرا على الاستفادة بشكل خلاق منها دون أن يستوعب فيها .

---

(١) الشرعية السياسية فى الإسلام مصادرها وضوابطها ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

٧- الخطاب الجديد بانفتاحه على المنظومة الغربية يدرك أبعادا كان من الصعب إدراكها دون هذا التفاعل « العلاقات الدولية ، الكوكبية ، البعد الكونى فى الظواهر المحلية ، خطورة الإعلام والدولة المركزية ، وزيادة وقت الفراغ .. إلخ » .

٨- اكتشف الخطاب الجديد أن الانفتاح على الحداثة الغربية ودراستها بشكل نقدى خلاق ، قد يفيد فى تنمية الوعى النقدى .

٩- يدرك الخطاب الجديد أن العلوم الإنسانية ليست علوما دقيقة عالية محايدة ـ كما يدعى البعض ـ بل إنها تحتوى على تحيزات إنسانية عديدة . ويحاول تأسيس علوم إنسانية لا تستبعد الإنسان ، ومن ثم هى مختلفة من منطلقاتها وطموحاتها ومعاييرها عن العلوم الطبيعية ، ولا تزعم أنها محايدة منفصلة عن القيمة ، بل تعبر عن المنظومة القيمية الإسلامية ، وهذه هى « إسلامية المعرفة ».

١٠- ويدرك الخطاب الجديد ما يسمى « العلم من منظوره الجديد » وهو علم يحتوى على مفاهيم مثل: اللا تحدد .

١١- ويدرك أن مفردات المعجم الغربى ليست جزءا من معجم لغوى وحسب ، وإنما جزء من معجم حضارى متكامل .

١٢- ومن أهم ثمرات الانفتاح النقدى على الغرب ، إدراك تركيبة مقولة العقل ، والتناقضات الكامنة فيه . فكلمة « العقل » فى المنظومة الإسلامية لها معنى محدد .

١٣- يدرك الخطاب الإسلامى الجديد قضية انفصال العلم والتكنولوجيا والإجراءات الديمقراطية عن القيمة والفائدة الإنسانية ، ويحاول حل هذه الإشكاليات .

١٤- يدرك الخطاب الإسلامى الجديد المكون الحضارى فى الظواهر ـ السيارة ـ الساندويتش[١] - الهامبرجر .. التى تبدو بريئة تماما ، وحلالا بشكل قاطع ـ ولا غبار عليها من الناحية الدينية المباشرة مرتبطة برؤية للكون تقف على طرف النقيض من الرؤية الإسلامية للكون ، وهذا ما يدركه الخطاب الجديد .

١٥- يتضح إدراك الخطاب الإسلامى الجديد لأهمية المكون الحضارى فى تقبله للفكرة القومية ولا يوجد مبرر للمواجهة مع الحركات القومية ذات التوجه العلمانى ، فهو يقبل التنوع الحضارى داخل إطار الوحدة الإسلامية العالمية .

١٦- يدرك الخطاب الجديد تماما مشكلة البيئة ، وأن بعض مفاهيم مثل: التقدم الدائم واللامتناهى ـ وهى مفاهيم محورية فى الحداثة الغربية ـ وهى مفاهيم معادية للطبيعة وللإنسان وللحدود ، وفى نهاية الأمر (الله) فهى مفاهيم كافرة. وهنا يأتى البحث الدائم للخطاب الجديد عن مناهج جديدة فى الإدارة ، وعن نماذج جديدة فى تطوير الدولة . ولعل من أهم القضايا التى تشغل الخطاب الجديد هى نظرية التنمية .

١٧ - الخطاب الجديد مدرك للقضية الفلسفية الأساسية فى العالم الحديث ، وهى قضية النسبية المعرفية التى تؤدى إلى العدمية ، وهو يطرح فى مقابلها ما أسميه النسبية الإسلامية التى تذهب إلى أن ثمة مطلقا واحدا هو الله سبحانه وتعالى المنزه عن الطبيعة والتاريخ والزمان والمكان والبشر ، ومطلقية الإله تعنى: نسبية كل شىء آخر.

١٨- كل هذا يعنى : الإيمان بفكرة التدافع ، وأن العالم ليس فى حالة جمود وإنما فى حالة حركة ، والتدافع لا يعنى بالضرورة الصراع وإن أخذ هذا الشكل أحيانا ، وثمة إيمان أيضا بفكرة التداول فالثبات لله وحده ، ونحن لسنا بمفردنا فى هذا العالم .

---

(١) إن لم يدخلها لحم خنزير ـ أو لحم غير مهيأ شرعيا .

١٩- فى الخطاب الجديد إدراكا لمشكلات ما بعد الحداثة والتى تبتدئ فى شكل الهجوم على كل النصوص الإنسانية المقدمة ، بحيث يتحول القرآن الكريم - على سبيل المثال - إلى نص تاريخى ، أو تاريخانى كما يقولون ... إلخ .

٢٠- إن ثمة محاولة لاكتشاف مقولات تحليلية وسطية تميز الخطاب الإسلامى عن الخطاب الحداثى الغربى الذى يتسم بالتأرجح الشديد بين قبضتين متنافرتين . فالغربى يطلب من المرء إما اليقين الكامل أو الشك الكامل إما أن يكون هناك عقل مطلق أو اللاعقل على الإطلاق . فيما يحتوى الخطاب الإسلامى الجديد على إمكانية وجود الفراغات ، أو إمكانية التعددية ، وإمكانية ألا يكون اليقين مطلقا وألا يكون الشكل نهائيا ، فهناك ما بينهما من الاختلاف والتمايز الفروق الكثيرة .

٢١- إن الخطاب الإسلامى فى المجتمعات الإسلامية التقليدية هو الشريعة[١] فالشريعة لا تزال هى الخطاب القديم والجديد .

٢٢- نظرا لعزل الشريعة عن واقعنا السياسى والاجتماعى أصبحنا نراها كما لو كانت مجموعة من الأحكام والآراء غير المترابطة ، ولكن عملية توليد الإجابات تتطلب إدراك ترابط أجزاء الشريعة وتكاملها ، وإدراك أنها تعبر عن رؤية للكون ، وهذا ما يحاول أن ينجزه الخطاب الجديد .

٢٣- من السمات الأساسية التى تسم الخطاب الإسلامى الجديد إدراكه لقضية السلطة وآلياتها المتعددة المتداخلة ، وعلاقة الواقع المحلى بالعلاقات الدولية ، كما يدرك الخطاب الجديد مدى تركيبة الدولة الحديثة وتغولها ومقدرتها على الهيمنة والتغلغل حتى فى حياة الإنسان الخاصة ، مع إدراك قوة أجهزة الدولة الحديثة: الأمن ، الإعلام ، التعليم ، الثقافة . وإعادة كتابة التاريخ وإسباغ القدسية اللامحددوة على الحاكم ومن يقترب منه... إلخ .

٢٤- الخطاب الإسلامى الجديد ونظرا لشموله واهتمامه بالجانب الحضارى

---

(١) انظر مقدمات هذا الكتاب عن أصول ومصادر الخطاب الإسلامى .

وبرؤيته للكون يولى اهتماما كبيرا للعنصر الجمالى والفنى ، فلا يكتفى بمقولتى: حلال وحرام ، وإنما يحاول أن يطور رؤية شاملة للفنون الإسلامية تستند إلى الرؤية الإسلامية للكون .

٢٥- ومن أهم جوانب الخطاب الإسلامى الجديد قراءة التاريخ ، فثمة رفض لفكرة التقدم الخطى اللانهائى ، ورفض للمفاهيم الخطية الواحدية أو ما يعرف بالإنكليزية بـ (Unilinear) التى تفترض وجود نقطة نهائية واحدة وهدفا واحدا يتحرك نحوه التاريخ البشرى بأسره ، الأمر الذى يفترض ضرورة رؤية تواريخ البشر من خلال منظار واحد ، والحكم عليها من خلال معيار واحد . ثم يضرب مثالا بدراسة « الصوفية » ويورد بعد ذلك أسماء علماء أجلاء من حملة التاريخ الإسلامى الجديد فى مختلف أصقاع العالم ويقول: ولا شك أن هناك الغزاة الآخرين داخل وخارج العالم العربى يساهمون فى تشكيل الخطاب الجديد ، ويلاحظ أن كثيرا من المثقفين من أعضاء الأقليات الإسلامية فى الغرب بدؤوا يساهمون بشكل فعال فى هذا الخطاب الجديد وهم لا يكتبون بالعربية ، ولكن إسهاماتهم مبدعة لأقصى حد ويمكن أن نذكر فى هذا المضمار المفكر الباكستانى « المقيم فى السويد » بارنيز منظور والمؤسسة الإسلامية فى ماركفيلد ببريطانيا.

ولعل المطلوب الآن أن نعمق إدراكنا للطروحات الأساسية لهذا الخطاب الجديد ، وأن نقوم بعملية تكثيف معرفى من خلال حصر أسماء الدعاة له وعناوين ما كتبوا من دراسات ، والله أعلم [1] .

تعليقات حول الخطاب الإسلامى الجديد:

نورد فيما يلى بعض الآراء والأفكار التى طرحت حول ورقة معالم الخطاب الإسلامى الجديد للدكتور عبد الوهاب المسيرى . وتأتى أهمية هذه التعليقات والأفكار من كون أصحاب الرأى فيه قد سمعوها مباشرة من صاحبها ،

---

(١) الشرعية السياسية فى الإسلام مصادرها وضوابطها، ص ١٧٤ ـ ١٨٨ بتصرف شديد .

وعاشوا مرارة العرض والإلقاء ، والتفاعلات التى لها بعض التأثير من المحاضر على سامعيه ، ونحن قرأنا الخطاب بعد سنوات من وقوعه أو عرضه ، ولذلك فإن حرارة وتأثير التعليقات تختلف تماما بيننا كقراء وبينهم كسامعين ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن أصحاب الرأى والتعليق هم من أساطين المفكرين الإسلاميين والدعاة للإسلام ، ولهم فى حياتهم تجارب على اختلافها تأتى نتائجها متقاربة بأنهم جميعا من الغرباء ، أو الذين يعيشون فى أوطانهم غرباء تحت رقابة وخطر عيون أمن بلادهم الذين لا يحصون عليهم أنفاسهم فقط ، ولكن يحصون عليهم حتى ما يجول فى خواطرهم .

ومن جهة ثالثة ، فإن هؤلاء من منظرى سبل الدعوة فى هذا العصر ، وممن لهم طروحاتهم وتجاربهم القوية والعميقة. وسأكتفى باختصار شديد لهذه الآراء مع اعتذارى للكاتب د . المسيرى ، وجميع من اختصرت تعليقاتهم فإن الاختصار لا شك معيب فى قضايا الفكر والرأى ، مهما كانت قوة المختصر وحسن اختصاره ، وهذه بعض الآراء لاستكمال الموضوع بشكله المطلوب بإذن الله تعالى :

د . مصطفى عبد العال:

أود فى البداية أن أقول بأننى استفدت كثيرا من ورقة الدكتور المسيرى معالم الخطاب الإسلامى الجديد والذى أعتقد أنه يبذل جهدا ذهنيا حقيقيا من أجل استنباط أمور جديدة .

ورغم استمتاعى الشديد بهذه الورقة ، إلا أنه لا يكفى من وجهة نظرى تحليل الخطاب الإسلامى ذاته فقط ، بل لا بد أن يشمل هذا التحليل أيضا ما ينتجه هذا الخطاب من مناخ لدى المستقبلين ، سواء كانوا مؤيدين له أو رافضين فهذا الخطاب لا يوجد فى فراغ ، بل هو خطاب موجه لبشر يتأثرون به بشكل أو بآخر ، سلبا أو إيجابا ، ويولدون بدورهم خطابات مؤيدة أو مضادة له ، أى خطابات تراه معقولا وقابلا للتحقيق على أرض الواقع ، أو خطابات ترى فيه

خطورة شديدة عليها وعلى مصالحها[١].

كما أن من المفيد أيضا أن نتساءل: لماذا يضطر الدكتور المسيرى فى بداية ورقته إلى التأكيد على بدهيات ، مثل تعمده تذكير قرائه بأن الخطاب الإسلامى السائد بإنتاجه وبذاته تسبب فى زعزعة بعض البدهيات؟ ومثال ذلك ما نراه من مسالك بعض المتحدثين باسم الخطاب الإسلامى الذين يتصرفون كما لو كان خطابهم مقدسا ، ولذلك يضطر الدكتور المسيرى فى مستهل ورقته لأن يذكر بأن الخطاب غير مقدس .

ومما يستحق التوقف عنده مما عرض له الدكتور المسيرى فكرة أن الخطاب الإسلامى وحتى البحث عن طبيعة نشأته فى الأساس حالة من ردة الفعل باتجاه الغرب ، أى : تجاه الحداثة وتجاه الحضارة الغربية .

وهنا يبرز التساؤل: لماذا لم يكن الخطاب الإسلامى خطابا منتجا ؟ أى أنه : بغض النظر عن رد الفعل ، وسواء كان هناك من يرى تكفير هذه الحضارة الغربية ونبذها ، ومن يرى أن فيها بعض المنجزات الحلال وبعض المنجزات الحرام ، لماذا لا يكون الخطاب منتجا ، أى : مشتملا على درجة من الذاتية ؟ إن انعدام هذه الإنتاجية الذاتية هو الذى دفع الدكتور المسيرى ، سواء فى تصنيفه المبدئى الأولى وهو من جزئيتين ، أو فى تصنيفه الثلاثى إلى اعتبار أن المسألة كلها نابعة من رد فعل تجاه ما يحدث من هذا الغرب أو من داخله [٢] .

د . عبد الوهاب الأفندى :

تشكل ورقة الدكتور المسيرى فى رأيى أفكارا أولية فى هذه القضية المهمة والمعنية بتطور الفكر الإسلامى الحديث ، ويهمنى أن أشدد على الصفة الأولية لهذه الأفكار ؛ لأنها تحتاج إلى مراجعة شاملة حتى تفى هذا التطور وصفا . يفهم من تحليل المسيرى تحيزه الواضح إلى الخطاب الجديد ، فهو يرى الخطاب

---

(١) انظر الفصل الثالث : كيف ندعو الناس ، من هذا الكتاب .

(٢) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب: وسائل الخطاب الإسلامى .

الجديد أفضل وأكثر شمولا ومرونة من الخطاب القديم .

أعتقد أن تصنيف الدكتور المسيرى الخطاب الإسلامى إلى قديم وجديد ، لا يفى تطور الفكر الإسلامى الحديث وصفا ؛ وذلك لأن أقل تصنيف ممكن للتيارات الإسلامية التى واجهت قضايا المسلمين فى العصر الحديث لابد أن يشتمل على أربعة أقسام أساسية . وهذا أمر مهم ، فيه إجابة على ما قاله الدكتور مصطفى عبد العال الذى تكلم عن الحداثة ورد الفعل تجاهها ؛ لأن التيارات الإسلامية الحديثة وكذلك كل التيارات السياسية والفكرية فى العالم الإسلامى ، إنما نشأت أساسا كرد فعل لتجربة الحداثة والاتصال بالغرب .

أرى أن الصنف الأول من الأقسام الأربعة يتمثل بردة الفعل الأولية والغريزية تجاه التجربة الحديثة والتى أطلق عليها ردة الفعل المهدوية ، وهى لا تصف فقط ما حدث عندنا فى السودان من ثورة الإمام محمد أحمد المهدى ودعوته التجديدية ، ولكن يدخل فى إطارها أيضا حركات أخرى نبعت من داخل التراث الإسلامى ، وكان العامل الروحى أو الروحانى فيها قويا . منها على سبيل المثال : حركة عثمان بن فوديو فى غرب أفريقيا ، وحركة الشيخ محمد عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ، وحركة الأمير عبد القادر الجزائرى فى الجزائر ، وحركة السنوسى فى شمال إفريقيا . كل هذه الحركات نبعت من داخل التراث الإسلامى دون أن تلقى بالا للغرب ، واستلهمت التراث الروحى الإسلامى ، وكانت إحيائية ؛ بمعنى : أن هدفها الأساسى كان السير على نهج الأولين فى إحياء الدين من الداخل ومن خلال اللجوء إلى الرصيد الروحى لهذا الدين [١] .

أما النوع الثانى من الخطاب ، فهو « التوفيقى » والذى أشار إليه الدكتور المسيرى بعبارة الخطاب الإسلامى القديم ، وهو خطاب الإمام محمد عبده ، وجمال الدين الأفغانى ، ورشيد رضا .. إنه خطاب نابع من التراث الإسلامى ، ولكنه يرى فى الغرب والحضارة مزايا يريد أن يدخلها ويستفيد منها . لم تأت

---

(١) انظر القسم الثانى من الفصل الأول ـ الباب الثانى من هذا الكتاب .

ردة الفعل تجاه هذا الخطاب فى الستينيات من هذا القرن ، وإنما جاءت فى الأربعينيات أو الثلاثينيات فى خطاب آخر أسميه الخطاب الأصولى أو السلفى وهو خطاب الشيخ المودودى فى الهند وباكستان ، وأصبح فيما بعد فى الخمسينيات والستينيات خطاب الشهيد سيد قطب . هذا الخطاب الأصولى يرفض التوفيقية ولا يعود إلى المهدوية بمعنى العودة إلى الرصيد الروحى فقط ، وإنما يعود إلى الأصولية الفكرية معلنا أننا لدينا أصولاً إسلامية واضحة لابد أن نرجع إليها ، فمثلا : لا يقبل هذا التيار بالقومية لاعتقاده بأنها فكرة جاهلية . كما يرفض هذا الخطاب الاعتذارية بمعنى : أن نبرر أنفسنا للغرب ؛ لأن لدينا تراثًا إسلاميًا واضحًا نبدأ منه ، ونذهب معه إلى حيث أخذنا ، فإذا أخذنا إلى ما يضاد الغرب ذهبنا ، وإذا قال : إن هذه القومية كفر ، نقول : إنها كفر .

ظل هذا التيار مهيمنا إلى أن وصل ما يسميه الدكتور المسيرى بالخطاب الجديد . نشأ هذا الخطاب على استحياء فى مطلع الستينيات فى مصر ، وكان من رواده الشيخ محمد الغزالى ، والدكتور محمد فتحى عثمان ، ثم انتقل فى السبعينيات إلى السودان بريادة الدكتور حسن الترابى ، ثم انتقل فى الثمانينيات إلى تونس وماليزيا ، وأصبح له وجود فى الغرب أيضا . هذا هو التيار الذى يتحدث عنه الدكتور عبد الوهاب المسيرى ، وأطلق عليه أنا اسم « تيار النضج» بمعنى: أن الحركات الإسلامية نضجت ، وأصبحت ذات رؤية شاملة .

أما الإمام حسن البنا :

فيصعب تصنيفه ؛ لأن قوته كانت تكمن فى محاولته الجمع بين كل هذه الأصناف . فإذا ما نظرت إليه من ناحية الروحانية والمهدوية تجد أنه أقرب إلى التصنيف المهدوى ؛ لأنه كان متصوفا وكان يملك إشعاعًا ورصيدًا روحيًا ، وكان ذلك هو مصدر جاذبيته . وفى نفس الوقت كان « البنا » توفيقيا ، بمعنى: أنه لم يرفض القومية ولا الوطنية ولا الديمقراطية بل يسعى إلى التوفيق بينها وبين الفكرة الإسلامية . وكان أيضا سلفيا ، بمعنى : أنه كان ينظر للعقيدة الإسلامية على أنها هى المرجع ، بمعنى: إذا اختلفت مع الغرب فهو يقف فى

صفها ، ولا يخرج بعيدا ، ولا يحاول التماس العذر أو إدخال شيء على حساب الأصول[١] .

ما تميز به التيار الجديد ـ أو تيار النضج ـ أن لديه شيئا من هذه التوفيقية . فهو لا يقبل بالتشدد بالتفسير ؛ لأن سعة الأفق ، واتساع المعرفة والاطلاع تحد من نزوع الإنسان إلى إطلاق الأحكام المطلقة . فلئن كان بعض الناس فى الماضى يرى أن كل ما فى الغرب هو خير ، بينما يرى البعض الآخر أن كل ما فيه هو شر ، لا يتوقع من عالم مسلم يدرس فى إحدى الجامعات فى أمريكا أن يكون له نفس موقف عثمان بن فوديو مثلا ، الذى نشأ فى غرب إفريقيا ، ولربما لم يلتق بغربى واحد فى حياته . لا بد هنا من توضيح أن النضج يقصد به التكامل . فإذا كان الإمام الغزالى - رحمه الله - قد اطلع على الفلسفة الإغريقية وهضمها ونقدها ، ومع علمنا بأن الإمام الغزالى كان يصف نفسه بأنه ينتسب للإمام الشافعى .

وأنا أرى أن الإمام حسن البنا لو ظهر اليوم ، ونظر إلى هذا الفكر الذى هضم الفكر الغربى ، وقرأ كتابات هايرماس ، والتوبيبر ، وغيرهما ، ونقدهم من علٍ لاعتبر أن هذا فكرا نضجيا يختلف عن الفكر الذى لم يسمع بهؤلاء الأشخاص . هذه حقيقة موضوعية ، وهى أن الفكر الذى يكون قد استوعب غيره ، ونقل الإسلام إلى منصة جديدة هو فكر أكثر نضجا مما سبقه من فكر . فهذا نضج موضوعى ليس المقصود منه الحكم على الأشخاص الذين سبقوا ؛ لأن كل شخص ناضج بزمانه ومكانه .

إذن يحتاج الدكتور المسيرى إلى تصحيح الجانب المتعلق بالتصنيف حتى يستوعب كل التيارات الموجودة.

الأستاذ كمال الهلباوى:

أود أن أشاطركم بعض المشاعر ، لأن الحديث عن ورقة « معالم الخطاب

---

(١) انظر: الباب الأول من هذا الكتاب .

الإسلامى الجديد » للدكتور عبد الوهاب المسيرى ، يحتاج وقتا طويلا ويتطلب قراءة متأنية ، ولربما استدعى نقاش الورقة بالتفصيل عقد عدة جلسات حتى تنضج الأفكار المطروحة فى كل نقطة من النقاط الخمس والعشرين التى أثارها الدكتور المسيرى ، وأقل ما يقال فى ذلك : إننا بحاجة إلى تقديم شواهد من الواقع ومن الفكر تؤيدها أو تثبت عكس ما ذهبت إليه من تحديد ملامح الخطاب الإسلامى المعاصر .

لقد ارتبط التطور الفكرى فى الخطاب الإسلامى ـ ولا يزال ـ بأوعية تنظيمية كثيرة لا أظن أن الدكتور المسيرى خبرها خبرة جيدة ، وذلك لأن البيئة التى عاش فيها الدكتور المسيرى بيئة فكرية متميزة ، فيها مفكرون متميزون من أمثال المستشار طارق البشرى ، أو السيد دسوقى حسن ، أو فهمى هويدى ، أو الشيخ الغزالى ، أو الشيخ القرضاوى وهى بيئة إسلامية راقية . ولذلك أقترح أن نخضع الورقة للاختبار حتى ندرك صلابة ما جاءت به من أفكار ، ومدى صحة ما نسبه الدكتور المسيرى نفسه للتيار الإسلامى من سمات .

يتمثل الاختبار الذى اقترحه بإجراء ما يشبه الاستفتاء بين الجمهور الذى يرتاد المسجد الذى كان يصلى فيه الشيخ عبد الحميد كشك - رحمه الله - للنظر فى هذا النموذج من العقلية الإسلامية السائدة فى مثل هذه البيئة وأقترح أن نجرى استفتاء مشابها فى مواقع متعددة على مجموعات إسلامية مختلفة ، سواء كانت إخوانية أو جهادية أو سوى ذلك من الجماعات الإسلامية ، ولو أن بيئة بيشاور فى أفغانستان كانت لا تزال موجودة بشكلها الذى عهدناه ، لأمكن أيضا أن نجرى فيها استفتاء مشابها ، ولكن حتى إذا كانت هذه البيئة قد انتهت إلى حد بعيد ، فأنا أعتقد أن أية بيئة مماثلة مما تعانى من نفس المشكلات ستفرز نفس النتائج . وهذه وغيرها ستمنح المسيرى فرصة لإعادة النظر فى فرضياته .

أعتقد أن الخطاب الذى تكلم عنه الدكتور المسيرى بإعجاب شديد ، واعتبره نقلة نوعية فى الخطاب الإسلامى ، يفتقد إلى رؤية كانت موجودة فى السابق وبشكل أوضح فيما اعتبره خطابا قديما . ولربما كان السبب فى ذلك أن

أصحاب الخطاب القديم كانوا يواجهون التحدى الاستعمارى . ففى حالة عثمان بن فوديو ، الذى كان مقره مدينة سكوتو فى نيجيريا. أطلقت كلمة سكوتو على هذه المدينة ؛ لأنها صكت أبوابها أمام الإنجليز . كان هناك واقع استعمارى تعامل معه عثمان بن فوديو- رحمه الله - وواقع آخر تعامل معه المهدى ، وواقع تعامل معه السنوسى ، وآخر تعامل معه الجزائرى ، وآخر تعامل معه حسن البنا . ولذلك أظن أن من المفيد أن يستوعب الدكتور المسيرى هذا الأمر[١] .

الدكتور بشير نافع :

إن الدكتور المسيرى هو أستاذنا جميعا . ولا شك أن ورقته التى نحن بصدد دراستها تعتبر تطويرا للمداخلة التى قدمها فى ندوة الشريعة أثناء الصيف . لدى فى البداية ملاحظات شكلية وسريعة أود أن ألفت الانتباه إليها . فعبد الوهاب المسيرى مراقب مهم ليس فقط للإسلام المعاصر ، وإنما مراقب للعالم فى حالة الإنسان ككل . وهو أيضا رجل مبدع وصاحب فكر . أظن والله أعلم أن الملامح فى الورقة غير واضحة تماما بين معالم الخطاب الإسلامى الجديد ومعالم رؤية عبد الوهاب المسيرى للعالم .

أقصد أن هناك جزءا غير بسيط من المعالم التى يتحدث عنها الدكتور المسيرى للخطاب الإسلامى الجديد هى ما يؤمن به الدكتور المسيرى شخصيا ، أو ما يجب للخطاب الإسلامى أن يتحلى بها . وليست بالضرورة من السمات الأساسية التى يتبناها قطاع واسع من قادة الرأى ، والطلاب ، وأصحاب الفكر فى العالم الإسلامى فى اللحظة الراهنة . هذه مسألة أرجو أنه ينتبه لها ؛ لأن جزءا كبيرا من النقاط التى طرحها فى ورقته يصعب أن أجد شواهد لها ، فلو أننى أردت أن أضع هامشا لكل نقطة من هذه النقاط ، فلن أجد فى الكتابات الإسلامية المعاصرة ما يؤيدها جميعا .

---

(١) الشرعية السياسية فى الإسلام مصادرها وضوابطها ص ٢١٦ ـ ٢١٨ بتصرف .

ويتابع الدكتور بشير نافع آراء الدكتور المسيرى الواحدة تلو الآخر فى تسلسل متدرج متوافق حول النقاط ومسألة التصنيف ، ومسألة النظر إلى الحركات الإسلامية ومشكلة التقسيم ، وحول الإصلاحية والتوصيف ، ويقترح الدكتور نافع للخروج من هذه المعضلة بإعادة قراءة التاريخ على المستويين : قراءة رأسية ؛ بمعنى : إعادة قراءة التاريخ ككل ، وقراءة أفقية ، بمعنى : إعادة تصور اللحظة التاريخية المعاصرة ، أى : علينا أن نقرأ العالم ككل ، وليس العالم فى مكان واحد .

علينا أن نرى التعقيد الموجود فى الحركة الإصلاحية التى لم تكن مجرد مشروع للتوفيق بين الإسلام والغرب . لقد قامت الحركة الإصلاحية على ثلاث قواعد فكرية أساسية هى : التوحيد والعقل والاجتهاد . والتى شن من خلالها الإصلاحيون هجوما واسع النطاق على تراث الأشعرية وعلى تراث فلاسفة اليونان ، وعلى الصعود الصوفى ، الذى استمر لأكثر من خمسة قرون ، ابتداءً من القرن الثامن عشر ، وهيمن هيمنة شبه شاملة على العالم الإسلامى ، وعلى الاستبداد أيضا . كل من هذه القواعد الثلاث : التوحيد والعقل والاجتهاد ، لم يكن مجرد أفكار أو مجرد محاولات لبناء فلسفة ، وإنما كانت بالنسبة للإصلاحيين والإسلاميين برامج اجتماعية وسياسية ، بما فى ذلك ما يتعلق بالدولة وعلاقة الدولة بالناس ، وما إلى ذلك .

وأخيرا: أرى أنه لابد من باب الإنصاف ، التذكير بأن الدكتور المسيرى لم يتكلم عن معالم الخطاب الإسلامى المعاصر بكل أطيافه . فهو لم يقصد قراءة الخارطة الإسلامية . ولم يقصد التطواف على مسجد الشيخ كشك ، وعلى كل ما هو موجود فى الساحة الإسلامية ، وإنما أراد أن يقول : أن هناك خطابا إسلاميا جديدا ـ هو جزء من خطاب عام ـ حاول فى ورقته أن يحدد معالمه [١] .

---

(١) الشرعية السياسية فى الإسلام مصادرها وضوابطها ص ٢١٨ – ٢٢٧ بتصرف .

الشيخ راشد الغنوشى:

أرى فى الورقة إثارة وتجديدا حقيقيا . ولذلك نالت كل هذه التعليقات ، وفجرت وستفجر كثيرا من التأملات ؛ لأن فيها تجديدا . لقد ملك المسيرى القدرة على أن ينظر إلى الساحة من علو . أى : أن يحيط واقعنا أو جزءا من واقعنا بنظرة شاملة . والحقيقة هى أن أمتنا تحتاج إلى مثل هذا العقل الناضج الذى يستطيع رؤية الوحدة ضمن الكثرة ، ولا يقرأ ضمن تعدد الواقع إلا خيوطا ناظمة فيه .

يمكن أن ينتقد المسيرى بأن ورقته فيها بعض نزوع توجيهى ؛ بأنه يريد أن يوجه التاريخ . فهو ليس ملاحظا مراقبا محايدا وإنما هو طرف . ولا شك أنه يصعب على الإنسان أن يكون إزاء التاريخ ، وخاصة تاريخ أمته محايدا . فهو لا يتناول مادة طيعة ، بل يتناول قضايا إنسانية إستراتيجية . كل قراءة للتاريخ ـ ولا يقتصر ذلك على قراءة المسيرى ـ هى صناعة للتاريخ ، وليست مجرد كاميرا محايدة تلتقط ما حدث ، وكل تفسير للماضى هو فى الحقيقة صناعة جديدة للمستقبل ، إنه مشروع للتغيير .

يمكن أن نتساءل حول نقاط التجديد التى أشار إليها ، ونقول : ما حجمها فى الفكر الإسلامى . يمكن أن يكون المسيرى قد ضخم بعض المظاهر ، كأن يأتى بنص واحد فى الفكر الإسلامى فيصوره كما لو كان ركنا من أركان التجديد . ولكن هناك حقيقة لا ينبغى أن نتجاهلها ، وهى أن كل عمل استيعابى وكل عمل تقنينى لا بد أن يستند إلى قدر من الوقائع .

وإذ نجد المسيرى يتحدث الآن عن ملامح فكر تجديدى . فإن ذلك يعنى أن الفكر الإسلامى ـ مهما صغرناه ـ قد حقق قدرا من التجديد ، سمح لمفكر أن يستخرج معالمه . وهذا يعنى بالتالى : أن المسيرى يحمل لنا بشرى مفادها : أن مولودا جديدا بصدد القدوم . وأن أمتنا ـ رغم الحطام والكوارث التى تمر بها ـ ليست عقيما ـ وإنما فيها مواليد جدد يبشرون بخير ، ومن هنا ، فإننى أرى أهمية هذا النصر التجديدى .

وبهذا ينتهى الحديث عن هذا الموضوع المتعلق بفكرة هذا الكتاب ـ الورقة التى ألقيت فى مؤتمر يضم نخبة طيبة من مفكرى العالم الإسلامى ، ثم تعليقات هؤلاء المفكرين حول هذه الورقة .

وإننى لأرجو أن أكون قد وفيت الحديث فى هذا الموضوع ، وقبل أن تقع عينى على هذا البحث والتعليقات ، وأرجو أن يجد القارئ جوابا على التساؤلات الكثيرة التى وردت فى تعليقات السادة المناقشين والمتحدثين ، ولقد أشرت إلى بعض العناوين المطلوب الرجوع إليها ، لتجيب على الاستفسارات والتساؤلات الكثيرة التى وردت أثناء التعليق والمناقشة . والكمال لله وحده ، وإنما نحن عبيد مقصرون خطاؤون وخير الخطائين التوابون ، والعفو من الله نرجو عن تقصيرنا ، وهو المستعان ومنه التوفيق .

obeikandl.com

المراجع

* القرآن الكريم .

١- كتب الصحاح : صحيح البخارى ـ صحيح مسلم .

٢- كتب السنن : سنن أبى داود ـ سنن النسائى ـ سنن الترمذى ـ سنن ابن ماجه .

٣- المسانيد: مسند الإمام أحمد ـ مسند أبى يعلى .

٤- إسماعيل بن محمد العجلونى الجراحى : كشف الخفا ومزيل الإلباس ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٩٨٣م .

٥- أحمد مهند بركات الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، دار المنار ، عمان ، ١٩٨٤م .

٦- ابن منظور : لسان العرب ـ إعداد يوسف خياط ، دار لسان العرب ، بيروت .

٧- إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، دار الدعوة ، إستانبول .

٨- أبو زكريا محيى الدين بن شرف النووى : المجموع ، دار الفكر ، بيروت .

٩- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد فى هدى خير العباد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٥م .

١٠- أبو الحسن على الحسنى الندوى: من مقدمة كتاب حياة الصحابة ، يوسف الكاندهلوى ، دار المعرفة ، بيروت .

١١- أساتذة من جامعة الإمارات العربية المتحدة : دراسات فى المجتمع الغربى ط١ ، ١٩٨١م .

١٢- ابن باديس : حياته وآثاره ، إعداد وتصنيف : عمار الطالبى ، دار مكتبة الشرق الجزائرية ، ١٣٨٨هـ .

١٣- إسحاق موسى الحسينى : الإخوان المسلمون ، بيروت ، ١٩٥٠م .

١٤- ابن رجب الدمشقى : جامع العلوم والحكم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط٧ ، ١٩٩٧م .

١٥- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون .

١٦- جمال الدين بن رشيد خوجا أوغلو قبلان : منشورات دار الخلافة ، كولونيا ، ألمانيا ، وكتب أخرى صادرة عن الدار منها :

- خلافة دولتى عمومى رياست مقامى .

- كلما زادت البشرية طغيانا أذاقها الله العذاب شيئا فشيئا .

- رسائل أخرى .

١٧- حسن البنا : مجموعة رسائل حسن البنا ، المؤسسة الإسلامية للطباعة النشر والصحافة ، بيروت ، ١٩٨٣م ، منها :

- رسالة التعاليم .

- نحو النور .

- الرسائل الثلاث .

١٨- تقى الدين النبهانى : كتب الحزب المعتمدة ودستور الدولة الإسلامية .

١٩- الأحاديث القدسية ، دار المنار .

٢٠- الإمام الخمينى ، الدولة الإسلامية .

٢١- ريتشارد ميتشل : ترجمة : عبد السلام رضوان ، بيروت ، ١٩٧٨م .

٢٢- الزركشى : إعلام الساجد بأحكام المساجد .

٢٣- سلمان فيض : فى غمرة النضال .

٢٤- سيد قطب : فى ظلال القرآن ـ « تفسير » ، دار الشروق ، ط٩ ، بيروت

٢٥- شهاب الدين أحمد عبد ربه : العقد الفريد ، منشورات دار الهلال ، ط١ ، ١٩٨٦م .

٢٦- شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى : المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشهورة على الألسنة ، دار الهجرة ، بيروت ، ١٩٨٦م .

obeikandl.com

٢٧- صاق آل بايراق : السائرون والمنفيون فى سبيل تطبيق الشريعة .

٢٨- طارق البشرى وآخرون : « الحوار الدينى ـ القومى » ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١ ، ١٩٨٩م .

٢٩- عبد المنعم الفلاحى : أسرار الكفاح الوطنى فى الموصل .

٣٠- عمر عبيد حسنة : مراجعات فى الدعوة والفكر والحركة ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، هريندن ، فرجينيا ، ١٩٩١م .

٣١- عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا السياسية ، ط٦ ، ١٩٧٦م .

٣٢- عبد الحميد بن باديس : تفسير ابن باديس ، دار الكتاب الجزائرى ، ١٩٦٤م .

٣٣- على أبو الفتوح: الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية (خواطر فى القضاء والاجتماع) مطبعة المعارف ، ١٣٣١هـ .

٣٤- عبد القديم زلوم : كيف هدمت الخلافة .

٣٥- عزام التميمى : الشريعة السياسية فى الإسلام : مصادرها وضوابطها ، ليبرتى للدفاع عن الحريات فى العالم الإسلامى ، لندن ، ١٩٩٧م .

٣٦- عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة البشائر ، ط ٤ ١٩٩٠م .

٣٧- فتحى يكن : المناهج التغييرية عند مفكرى الإسلام خلال القرن العشرين ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٨م .

٣٨- فهمى جدعان ، دكتور : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

٣٩- الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتب العلمية ، ط ١٩٩٣م .

٤٠- قانون ٤٩ (قانون العار) ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٨٢م .

٤١- مالك بن نبى : نحو كومنولث إسلامى ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، القاهرة .

٤٢- محمد الطاهر بن عاشور : أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام ، تونس ، ١٩٦٤م .

٤٣- محمد عمارة : معالم المنهج الإسلامى ، اللجنة العليا للدعوة بالأزهر الشريف والمعهد العالمى للفكر الإسلامى ، فرجينيا .

٤٤- مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثمانى .

٤٥- محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الآسيوى ، القاهرة ١٩٧٢م .

٤٦- محمد كرد على : مذكرات محمد كرد على ، مجلة المجتمع ، الكويت .

٤٧- مراد هوفمان : الإسلام عام ٢٠٠٠م ، دار الشروق ، ط ١٩٩٥م .

٤٨- محمد على الشوكانى : فتح القدير « تفسير » ، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب دمشق .

٤٩- محمد بن على الشوكانى : نيل الأوطار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ ١٩٨٣م

٥٠- مجيد خدورى : الاتجاهات السياسية فى العالم العربى ، بيروت .

٥١- محمد الغزالى : خلق المسلم ، دار العلم ، دمشق ، ط١١ ، ١٩٩٤م .

٥٢- محمد فؤاد عبد الباقى : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : دار الفيحاء ، دمشق ط ١٩٩١م .

٥٣- محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

٥٤- محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله ﷺ ، دار القلم ، دمشق ١٩٨٥ .

٥٥- نجدت فتحى صفوت : الطرق فى مذكرات الدبلوماسيين الأجانب .

٥٦- الندوة العالمية للشباب المسلم ، الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب ط١٤٠٩هـ.

obeikandl.com

٥٧- وهبة الزحيلى ـ دكتور : الفقه الإسلامى وأدلته ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٩م

٥٨- يوسف الحكيم : بيروت ولبنان فى عهد آل عثمان .

٥٩- يحيى بن أبى بكر العامرى : الرياض المستطابة ، مكتبة المعارف ، بيروت ـ ١٩٧٦م .

٦٠- ياسين غضبان : حاضر العالم الإسلامى ، ط٢ ، ١٩٩٧م ، مؤسسة الرسالة .

٦١- ياسين غضبان : نساء فى حياة الأنبياء ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

مجلات :

١- مجلة المجتمع الكويتية ، ١٩٩٧م ، العدد ١٣٢٢ ، الكويت ، الصفا .

٢- مجلة نهضة العرب ، (باريس) ، ١٩٠٩م .

٣- مجلة المقتطف ـ أكتوبر ١٩٠٩م .